آية يحيى

نهاوند

رواية



نهاوند

إسم الرواية: نهاوند
عدد الصفحات: 160
القياس: 21.5 × 14.5 سم
المؤلفة: آية يحيى
التدقيق اللغوي: الأستاذ خليل عون

ISBN: 978-9953-84-990-0

جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للمؤلف
2016



دار عون
للطباعة والنشر والتوزيع

هـــاتف: 01/453737 - 01/453730
تلفاكس: 01/453731 - 07/500001
www.dar-aoun.com
Email: info@dar-aoun.com

الإخراج والتنفيذ الطباعي:
blend
Design & Printing
+961 1 547 246 +961 70 90 82 11 +961 70 02 82 19
blend.designs1@gmail.com

آية يحيى

نهَاوند

روایة

إهداء..

لكل إمرأة أهداها رجل يوماً أحلاماً منتهية الصلاحية

****

ولمدرّسةِ اللغة العربية التي قالت لي يوماً

ستموتين قبل أن تكتبي جملةً مفيدة

❋❋❋❋

إيّاكِ أن تؤمني بأعذاره الواهية،يتّخذ النصيب شمّاعة أخطاء ارتكبها..

فلا شيء يمنعه من الاستمرار معكِ.. سوى أنّه لم يكن رجلاً بما يكفي.

لا تقرعي جرسه مجدّداً، ولا تشرعي أبواب ثقتك للرجال..

❋❋❋❋

لم تكن تملك القدرة على الهروب من الموت.

لذلك كانت قريبةً منه، وعندما استعادت تلك القدرة، أصابتها الحمّى..

رمتها في الفراش تفكّر بذاك الذي اقترب كلّما همّت بالابتعاد عنه، ثمّ تلاشت فجأة فكرة هروبها من موته تدريجيّاً.. واستعادت عافيتها..!

لتعود وتصعد أدراجَ حرّيتها مجدّداً قبل أن يغريها بقصور حبّه التي بناها لها من الأوهام.. وشيّدها بأسوار من الألوان والورود..

تلك الورود التي لا تنفكّ تصبح أشواكاً حادّة إذا ما فكّرت في التمرّد، والابتعادِ عنه..

أمّا القصور التي تمسي سجناً بقضبانٍ وردية.. فخلفها سجّانٌ يتقن لغة العزف على أوتار الحنين.

لم يكن ليخبرها أنّ لاقترابها منه عوارض قد تظهر لاحقاً، ولم تكن لتقرأ ما بين سطور كلماته.. اكتفت بالكلمات القريبة فقط.. لقلبها.

هو لم يكن يوماً كاذباً أو مخادعاً..

وإنّما كان عاشقاً لامتلاكِ فتاةٍ حالمة، فتاة تجعله بطل

أحلامها وواقعها معاً،

فتاة لا تنفكّ عن إعطاءه الأمل والتفاؤل كلّما نظرت إليه متناسياً ما قد يصيب أحلامها عند امتلاكه لها..

لم تكتفِ بدفئه.. بل اقتربت منه حدّ الاحتراق.

معظمنا لا يدرك حقيقة الوهج الذي نتبعه كونه يشعّ من أشخاص لطالما كانوا لنا مصدر الأمان، لكنَّ ثقتنا تلك وحدها.. هي من تستطيع تحويل ذاك الوهج إلى لهيب ينتظرنا بشغف.

لكنّه لم يكن ينتظرها بشغفٍ كغيره..

كان يستمتع بامتلاكها ببطء، كسماعه لمعزوفة فالس ليوهان شتراوس..

كان يرقصُ بها في خياله.. ومع كلِّ خطوةٍ من هذه الرقصة، يقتربُ أكثر لنواةِ روحها الراقصة..

حين أدركت حبّه لامتلاكها.. لم تقوَ على مصارحة نفسها بالخذلان، أخذت تنسج له من التبريرات وشاحاً، ناسية قلبها الذي يشعر بالبرد.. على قارعة طريقه المظلم..

كانت تقول: لا رجوع إلى الوراء، ولا خطوة واحدة..

ليأتي الليل ويعطيها نفحاتٍ من حنين، تكون كافية كي تنسيها إصرارها السابق على الـ لاعودة.

أمّا هو، فأرادها أنثى لا منافسةً لها..

أرادها فنّاً، بعيداً كلَّ البُعد.. عن أيِّ فنٍّ آخر.

أرادها بصفاتٍ ترفع لها رايات الاستسلام

ليرى نفسه بعد إنجازه رجلاً من القلائل الذين يعرفون كيف يَجعلُ من امرأةٍ شيئاً يفوقُ الأمنيات.. متناسياً اعترافه الأوّل لها أنّه لا يوجد أيّ موسيقى تغنيه عن نغمات صوتها

وأنّ صوتها هو أعذب ألحان الحياة.

لم يكن بوسعها سوى الاعتراف بأنّها وقعت تحت تأثير رجل كان بالنسبة لها من عصر آخر..

من عصر لا ينتمي له باقي الرجال،

كان صاحب شخصيّة فريدة، برجولة كاملة

وطبع استثنائي..

استطاع أن يجعلها تراه تاريخ ميلادها.

ومسيرة عمرها وشهادات تفوّقها، وكلّ شيء يحيي الأمل فيها على الرغم من كونه أيضا.. سبب موتها.

أبت أن تكترث للمرأة المتمرّدة بداخلها، واسترسلت برسم أحلامها معه و به.. له و فيه، لأنّه خلق في عينيها نظرة اكتفاء جعلتها تراه في البداية وفي المنتصف وفي النهاية.

أَحبَّها للقدر الذي جعله يفكّر في إعادة تكوينها

إعادة نحت أنثى خلقت له هو..

يتطرّف بها.. ويتجاوز معها كلّ الإشارات الحمراء.

كان يوماً مميّزاً، حفر في ذاكرتها..

عندما أجاب على سؤالها المعتاد بأكثر من كلمة "نعم"

تسأله دائماً أما زال يحبها؟

كونه رجلاً قليل الكلام..

- أتحبّني؟

- نعم، منذ استفاق اللحن على وتر الكمان.

بالطبع يحبّها، حتى وإن لم يبح بذلك،

فهي معزوفته الجريئة التي تتراقص على إيقاعها فتيات ماضيه بأقدام حافية.

في تلك الليلة، استطاع سلبها كلّ لحظة حزن كان قد تسبّب بها، فقد كان رجلاً آخر، استسلم لعواطفه وانتزع قناع الرجل الذي لا تهزّه رياح أنثى يحبّها..

عيناه كانتا تحكيان روايات عشقه الذي لم يظهر منه إلّا القليل، يداه كانتا تحتضنها وكأنّه سيموت بعد ساعات، أمّا لسانه، فلم ينطق شيئاً.

- ألا تريد إخباري شيئاً؟

- عن ماذا؟

- عمّا تشعر به الآن!

- ألم تسمعي بالبيت القائل:

كلماتنا في الحبّ تقتل حبّنا، إنّ الحروف تموت حين تقال؟ أصغي إلى قلبي..

نظرت إليه وكأنّها امتلكت ما حلمت به طوال حياتها،

- لِمَ أنا؟

- لأنّكِ مقطوعتي الجميلة،

الموسيقى الكلاسيكيّة التي أفضّل.

دائما يستطيع جعلها ممتنّة لعشقه دون أن تفكّر بما يخفي بين طيّات كلامه المنمَّق، لم تعِ معنى أن تكون الأنثى مقطوعة رجل يختار موسيقاه بدقّة وعناية فائقة، كمن يختار عروسه.

فما حاله إذا كانت عروسه هي تلك الموسيقى التي يفضّل..

تلك الليلة لم تكن معزوفته الجميلة فحسب، بل كانت البيانو الخاصّ به،

فهي تشبهه لحدّ كبير كونها مرهفة، تصدّرت قلبه كما يتصدّر البيانو الصالونات ولم تنتقل من مكانها إلّا بحساب ولم تذهب إليه ولم تبحث عنه،

لكنّها تحمله على البحث عنها والاستماع لها،

هي ليست فائقة الجمال لكنّها واسعة النفوذ في عالمها، ويكفيها فخراً أنّها أوقعته بشباك ألحانها.

اضطرّ للسفر بداعي العمل، فسعت الأنثى المتمرّدة بداخلها لاستثمار غيابه في هروبها من دوّامته..

في يومها الأوّل بدونه استيقظت متعبة وغير قادرة على النهوض كمن دفن نفسه في قوقعة، بقيت في سريرها تحدّق بالساعة على الحائط، لم يتّصل!

لا بأس فهي تحتاج ابتعاداً كاملاً ولا وقت للعواطف والاشتياق.

نهضت وهي تحاول إقناع نفسها بجدّية ماتقوم به.

خرجت لتجلس في مقهى تقليديّ لا يمتُّ للكلاسيكيّة بشيء، ولا يشبه ذوقه أبداً، مكان يعجّ بالناس والضجيج وأصوات الصحون.

ابتعدت عن ذوقه الهادئ، وعن موسيقاه التي طالما كان يتحدّث عنها أو يسمعها أو يعزفها.. لم تكن محاولة نسيان رجل الألحان ذاك سهلة كما اعتقدت.

في المساء باغتت نفسها بالسؤال: أين هو الآن؟ وما الذي أنساه محادثتي؟!

حين يتّصل لن أجيب.

ثمّ أخذت كتاباً لتقرأه، علّها تشغل كيدها عنه قليلا.

صباح اليوم الثاني استيقظت وحدّقت بالساعة كاليوم السابق، (أيضا لم يتّصل) ثم نهضت لتستحمّ وتهمّ بالخروج

وتمضي وقتاً يسرع في انتهاء يوم آخر بعيداً عنه، مقنعة نفسها أنّها بذلك تكون قد تجاهلت غيظها.

قصدت ذات المقهى، بقيت فيه نصف نهارها ثمّ قرّرت زيارة صديقتها غريس، التي لا تتوقّف عن إقناعها بالابتعاد عنه ونصحها بإيجاد رجل آخر يحبّها كأيّ رجل عادي.

حين سألتها غريس عن أوضاعها معه، أظهرت سيلا لها ابتسامة مرفقة بجملة (بخير، رجُلي هو فكيف حريّ به أن يكون؟)..!

أنهت النصف الثاني من يومها ثمّ عادت للبيت وأخذت تكمل قراءة الكتاب..

هاتفها يرنّ في الساعة الحادية عشرة، رقم خاصّ.

أتراه عاد؟.. اشتقت إليه.

لا لا.. يجب أن أتماسك أمامه..

ردّت وكانت قد رسمت ألف حوار في عدّة ثوان وألف عتاب تستقبله بها،

قال بنبرة جادّة بعض الشيء:

افتحي الباب، وجدي سبباً للخروج.

ثمّ أغلق الهاتف، وركضت هي نحو الباب،

وجدت علبة مربّعة كبيرة سوداء وضع عليها ورقة: أُريدُكِ أُنثى.

كما جاءَ في كتب الشعر منذُ أُلوفِ السنينْ..

ارتديه في ليلتي هذه وانزلي..

لم تستطع منح نفسها أكثر من عشر دقائق لترتديه وتصلح شعرها، فمن يقوى على التأخّر عن حضرة عشقه؟..

لكن في طريقها إليه تذكّرت كلّ فعل جرحها لتمنع نفسها من الوقوع بشباك الشوق..

عند المدخل،أخذت نَفَسها وخرجت،

صعدت بسيارته، واكتفت بمساء الخير دون الالتفات إليه.

- لم لا تنظرين إليّ؟

- لم عدتَ بهذه السرعة؟

لم يكن يملك جواباً يخفي به اشتياقه..

- اشتقت.

- لِمَ؟

- اشتقتُ فقط.

- ألا تقوى على مصارحتي بعدم قدرتك على الابتعاد؟

- أليس لديكِ سوى الأسئلة اليوم؟

أنيق بكبريائه هو، يتظاهر بالقوّة أمام جبروتها،

أنيق بتظاهره بأنّه لا يحتاجها، وفي قرارة نفسه هو في أمسّ الحاجة لكلّ شيء فيها..

اصطحبها لحفل موسيقي لأحد الموسيقيّين الذين يفضّلهم، لم يكن يتحدّث كثيراً.. وكانت تنتظر الكثير.

أمسك يدها وقال:

- أتحبّين الرقص؟

ردّت بغرور:

- أمام المرآة نعم.. فلا أحد غيري يستحقّ الاستمتاع.

- هذا يعني أنّي أستطيع رؤيتك حين ترقصين.

كان عليها أن تعلم جيّداً، كيف يمكن لرجل أن يكون مرآتها التي تعكس لها ما يريدها أن تراه.

❋❋❋❋

كانت تعيش معه سعادتين، الأولى بحاضرها معه والثانية خبّأتها مع المستقبل ليحرسها بالأمل.

❋❋❋❋

ما سرّ استمرار تلك العلاقة بين رجل متكبّر وأنثى عنيدة؟

هل هو من يعشق عنادها؟

أم تراها هي تهيم بطغيان حضوره؟

حسناً.. الحبّ دوماً يصنع المعجزات

لكن بغضّ النظر عن تلك المعجزات، في أغلب الأحيان يقع الحبّ قتيلاً بين كبرياء وعناد.

هل من الممكن أنّه لم يحبّها قطّ؟ وأنّها كانت تملأ الفراغ بداخله؟

هذا ما كانت دوماً تسأل نفسها عنه..لكن يصعب معرفة الإجابة من رجل مثله، فهو لا يعلم سوى أنّها تنقصه في كلّ دقيقة.

وجدت لنفسها الإجابة في كتاب كانت تقرأه وذكر فيه أنّ الرجل كالزواحف يتخلّص من جلده ومن ماضيه دون عناء، ووحدها المرأة تعيش مزدحمة بكراكيب " الذاكرة ".

استطاعت إقناع نفسها أنّه رجل غير مناسب لأنثى مثلها.

فهي خلقت من فراشات الضوء التي تسعى دوماً للبقاء في النور، تضيء كلّ حلم يراودها ليكون يوما ما واقعاً جميلاً..

لكنّه كان يسعى لإبقاء حبّهما بعيداً عن أيّ ضوء،

حتّى أنها لم تكن تقوى على مجرّد الحلم بامتلاكه، لأنّه أحبط كلّ محاولة لها بذلك، بينما كان يمتلكُها ويتملّكها..

معظم الرجال المتزوجين في مجتمعنا لا يملكون الجرأة على الإفصاح عن حبّ اجتاح حياتهم،ويعتبرون الأنثى الثانية في حياتهم، كأحمر الشفاه في العزاء، مع أنّهم يُشعرون الأنثى التي يحبّون أنّها أعظم ما خلق الله وأنّهم غير قادرين على العيش بدونها..

نعم، غير قادرين على العيش بدونها وغير قادرين على الارتباط بها!

لكنّهم قادرون جدّاً على جعلها تتعلّق بهم حدّ الهيام..

- إلى أين نذهب؟

- أينما تريدين

- إذاً أين أنت ذاهب الآن؟

- إلى اللامكان

- إلى أين؟

- إليكِ

- أنا اللامكان؟ لا أفهم ما تودّ قوله!

- لا تحاولي فهم كلّ شيء.. جرّبي الشعور به

- لم أعد أفهمك، كما أنّي لم أعد أشعر بما تقول

- أشعلي الراديو عزيزتي..

يكابر دوماً ولا يستطيع اخبارها أنّها كلّ الأماكن وأنّها كـَروما، كلّ الطرق تؤدّي إليها.

- غداً سنذهب لمكان تحبّينه.

- سينما؟

- نعم، منذ زمن لم أذهب لحضور فيلم

- منذ متى؟ وفي سؤالها نبرة غيرة.

فهي تعلم أنّه رجل يستطيع العيش دون امراة، لكن من الصعب عليه العيش دون أنثى.. يشاركها لحظاته المختلفة، ويجرّب معها تفاصيله اليوميّة.

- ما نوع الأفلام التي تحبّينها؟

- الرومنسيّة والمخيفة

- ما هذا التناقض سيلا؟

- بالعكس، عندما نحبّ نخاف فقدان من نحبّه، وعندما نخاف نلجأ لمن نحبّ.. بالتالي لا يكون شيئاً متناقضاً

- فتاتي الذكيّة، أنتِ على حقّ.

- دوماً تهرب من أسئلتي؟ منذ متى؟ أنا لم أنسَ

- اممم لا أهرب من الاجابة، بل من المشاكل التي ستحدث بعدها

- آخر مرّة كنت مع فتاة؟

- ألم أقل أنكِ فتاتي الذكيّة؟

تظاهرت بعدم الاكتراث وردّت:

- حسناً وما المشكلة في ذلك؟ جميع الرجال لديهم نزوات.

لم تكن تعي أنّها لا تختلف عن تلك النزوات بشيء،

هي نزوة أيضاً.. لكن من نوع آخر.

هل من الممكن أن تغدو النزوة حبّاً لا يمكن الابتعاد عنه؟

هل هناك مخرج من دوّامة عشق كانت بداية نهايتها؟

وهل اختيارها كان خطأ؟ أم أنّ التوقيت كان متأخّراً؟.

لم تفكّر يوماً انها قد تغرم بشخص مثله، ملكٌ لامرأة أخرى،

مع ذلك لم تسمح لغيرتها وأنانيتها به أن تشعره بالنفور تجاه زوجته، أو حتّى تشغل كيدها بمحاولات تجعله يبتعد عنها،

دوماً كانت تقول أنا من تطفّل عليهما، وأنا من سيتحمّل النتائج،

حتّى عندما كانت تباغت نفسها بالسؤال المعتاد،

أتراه بجانبها الآن؟ أم أنه وحده؟!

كانت تلهي نفسها بأيّ شيء يبعد عنها وساوس الغيرة.

خرجت من بلدها هاربة من ظلم الحرب، لكنّها لم تكن تعلم أنّ حرباً أخرى كانت بانتظارها ولم تكن على دراية بالغريم.

قال بتكبّر:

- أنا لست صاحب نزوات

- حقّاً! هل هذا يعني أنّك لم تعش تجارب كثيرة؟

- بعض العلاقات العابرة

- حسناً، ماضيك لا يعنيني، أملك الحاضر وربّما الآتي.

- ابتسم دون ملامح.. دون أن يظهر لها جواباً يقرّبها منه أو يبعدها.

أمّا هي فما كانت تصبّر نفسها به..هو الأمل، بالطبع

فبأيّ حجّة ستقنع المواعيد بأنّه ربّما يرحل وينتهي دوره من حكاية واهمة.. رسمت لها نهاية معه، لا بدونه.

بأيّ كذبة ستتحايل على ذكرياتها لتمضي وكأنّه لم يكن في قلبها.

تعرف النهاية جيّداً.. لكنّها كمن يقرأ الأبراج يوميّاً وينتظرها ثمّ يقول كذب المنجمّون ولو صدقوا.

❋❋❋❋

حربها شرسة..

فالحبيب من أقوى الخصوم.. لأنّه يعلم نقاط الضعف وكلّ ثغرات النفس.

❋❋❋❋

حين رآها أوّل مرّة لم يدرك حقيقة ذاك الوهج الذي صدر منها،

شيء ما تحرك داخله.. حنين لامرأة لم يعرفها بعد.. لكنّه يشعر بها جيّداً.

ولم يدرك أنّها ستغدو ريحاً عاتية تدخل حياته وتخرح محمّلة بكلّ لحظة سعادة، تاركة له نفحات من الحنين.

كان صاحب الشركة التي رماها القدر بوجهها حين قرّرت أن تعمل لتساعد والدها..

- غريس.. أريد أن أعمل، أن أحقّق شيئاً وأساعدهم فيما أستطيع.

- نعم أنا معكِ في هذا القرار، سأخبر والدي فمعارفه كثر وأصحاب شركات، ربّما نعمل معاً فأنا أيضا أرغب في العمل.

بعد يومين أخبرتها صديقتها غريس أنّ والدها يريد أخذ سيلا معه لابن صديق له يملك شركة مقاولات، ومن المؤكّد أنّه يملك مكاناً شاغراً لها.

دخلت باب الشركة دون علمها أنّها لن تخرج منه سالمة من عشق يخرج أصدق مافيها..

كان ينتظر صديق والده، لكنّه يعلم أنّه لا يملك أيّ شاغر، وأنّه سيقول له أن تنتظر شهرين أو ثلاثة ريثما يفتتح الشركة الجديدة.

وصل السيد أمجد وسيلا وغريس لمكتب زياد.. أخبرته السكريتيرة أنّهم ينتظرونه عندها.. فأخبرها أن تدخلهم وتقول له أمامهم بعد نصف بأنّ قاعة الاجتماعات جاهزة والموظّفون بانتظاره.

دخلوا المكتب.. صافحا بعضهما هو والسيد أمجد وتبادلا القليل من العتب.

ثمّ عرّفه والد غريس:

- غريس، ابنتي الوسطى

- أهلاً آنستي، سعيد للقائك.

- سيلا، صديقة غريس التي أخبرتك عنها

لم يعرف أبداً أيّ إحساس انتابه، شيء غير قابل للوصف وكأنّ سعادة الكون أجمع قد تسرّبت لقلبه..

- آنستي.. تشرّفت بمعرفتك

حاول أن يخفي إعجابه الكبير بها من اللحظة الأولى تلك..

ما بي!! حسنا، أنا زياد الخطيب، يجب أن أكون رصيناً.

بدأ هو ووالد غريس بتبادل أطراف الحديث وتكلّما عن الأعمال والتجارة، إلى أن وصلا لموضوع سيلا..

قال له السيد أمجد: سيلا كغريس تماماً، إنّها ابنتي الثالثة، هي من دمشق وجاءت مؤخّراً للاستقرار مع عائلتها هنا، واخترتك انت لأني أعلم جيّداً أي نوع من الرجال أنت وابن من.. لأكون مرتاح البال بالنسبة لهذه الفتاة.

لم يسمع من حديث السيد أمجد سوى اسمها، أيّ نوع من النساء هي..؟

التفت إليها وحدّق بها جيّداً.. وقال للسيد أمجد:

أنا تحت أمرك.. فأنت كوالدي تماماً وكلّ ما تطلبه يجاب على الفور.. لا تقلق ستكون بأعيننا وواحدة من عائلة هذه الشركة.

لكن أريد معرفة القليل عنكِ آنستي..

دخلت سكريتيرته وأخبرته أنّ الموظّفين بانتظاره للاجتماع..

أجاب مستغرباً:

- أيّ اجتماع؟

- ألم تخبرني أن أجهّز اجتماعاً للموظفين أستاذ زياد؟؟

- ماذا؟ آه نعم نعم.. تأجّل للغد

ثمّ عاد للحديث مع سيلا:

- حدّثيني عنكِ قليلاً..

أجابت:

- سيلا من دمشق.. أربعة وعشرين عاماً

أدرس الموسيقى في المعهد العالي بدمشق، والآن مع غريس هنا في المعهد الموسيقي.. أتقن الإنكليزيّة والكومبيوتر و..

قاطعها سائلاً:

- هل تتقنين المحاسبة؟

- لا، لكن أعرف رؤوس أقلام عن برامج المحاسبة.

- حسناً، سأعيّنك في قسم المحاسبة، هناك شاب يدعى أنطوان، سيدرّبك، ريثما تتقنين المحاسبة وتبدئين عملك معنا.

سعادته بوجودها معه فاقت سعادتها أنّها استطاعت العمل بأشواط، فتاة نقيّة، تملك كلّ الحيوية التي يفتقدها، في نصف ساعة جعلته يصل لسعادة بحث عنها سنين..

هي لم تشعر تجاهه بأيّ شيء، وعند عودتها للمنزل أخبرت والديها واختها بتفاصيل ما حدث.

على غير عادته استيقظ باكراً.. ليصل قبلها إلى الشركة، وصل مكتبه وبدأ ينتظرها.. كي يدعوها لشرب قهوته معها.

مشاعره كانت طفوليّة أمامها، بالرغم من أنّه رجل صارم وجدّيّ..

ولا وقت للنساء في حياته بعد آخر خلاف مع زوجته، لكنّها كانت أكبر من كلمة أنثى، حتّى أنّها سبقت الإناث بمراحل.. واجتازت جميع النساء اللواتي عرفهنّ في حياته.

❋❋❋❋

هي لحظة.. قلبت حياته رأساً على عقب، أصبح يبحث عنها بشغف طفل، بجنون مراهق.

❋❋❋❋

وصلت سيلا للشركة، واتّجهت لمكتب المحاسبة والتقت بأنطوان، لاحظ زياد أنّها تأخّرت.. فاتّصل بقسم المحاسبة وسأل أنطوان عنها..

وطلبها لمكتبه..

- دخلت سكريتيرته نغم: استاذ زياد..

قاطعها:

- دعيها تدخل..

مجدّداً عصفت فيه رياح شرقيّة حين رآها.. حملت إليه غبار السعادة، ليغمض عينيه ويتأمّل مستقبله يعجّ بها..

- من أنتِ؟

بتعجّب ملحوظ قالت له، أنا سيلا، التقينا البارحة..

- لا، حدّثيني عنكِ، من تكونين؟

- عفواً سيّد زياد أنا لا أفهم ما تقصد!

- اجلسي.. ماذا تحبّين؟ وما تكرهين؟ ما رياضتك المفضّلة؟ وما مشروبك الصباحيّ؟

أيّ أنواع الموسيقى تسمعين؟؟ وما أكثر معزوفة تأسركِ؟

- عفواً، لكن هل هذه الأسئلة روتينيّة؟؟ لا أعتقد ذلك!

- أيّاً يكن، أنا رجل صريح.. لذا سأخبرك شيئاً

ينتابني فضول حول معرفة كلّ شيء عنك.. فأنا رجل أقدّر النساء اللواتي يملكن حسّاً موسيقيّاً مرهفاً.

- وكيف تعرف إذا ما كنت أملك حسّاً موسيقيّاً أم لا؟ المعهد الموسيقيّ ليس كافياً لنكون أصحاب حسٍّ موسيقيّ، أليس كذلك؟

لا يستطيع إخبارها أنّه يرقص فرحاً على لحن حضورها، وأنّ ترانيم صوتها تشبه القُبل.. فيغدو كاذباً متلاعباً في نظرها.

أجاب:

- بالطبع لا، لكن لديَّ نظرة في الأشخاص، غالباً لا تخطئ وأنا متأكّد الآن أني غير مخطئ.

سألته:

- هل نستطيع تأجيل ذلك ليوم آخر؟

أجاب بغضب حاول إخفاؤه:

- لا مانع، يمكنك الذهاب لمكتبك الآن.

عدم اكتراثها بكلّ ما قاله تحوّل في لحظات إلى إشعاع عبره

من الداخل وبعثر كبريائه، فاض الزمن به، افترسته.. ببرودة لامبالاتها.

وهذا يعني أنّ أسلحته الفتّاكة التي استعملها يوماً مع نسائه، فشلت معها.

كبريائه لم يمنعه من التقرّب منها لأكثر من يومين، ليكسر قاعدته في عدم المبادرة نحو امرأة ويتّصل بها طالباً حضورها لمكتبه..

- مرحباً أستاذ زياد

- أهلا سيلا.. عذراً لكن أريد أن استشيرك بموضوع، لست بمزاج جيّد وأرغب بالتحدّث معك، هل تستطيعين اعتباري صديقاً ليوم واحد؟؟

- بالطبع أستاذ، تفضّل.

- ليس هنا سيلا، ألا تمانعين بقبول دعوتي على فنجان قهوة صحيح؟

لم تستطع الرفض، شيء ما دفعها لقول نعم بقوّة..

- حسناً، متى؟

- الآن.

شعر أنّه انتصر على شكّه بنفسه أوّلاً، ثمّ بنصره على لامبالاتها السابقة ثانياً، فالرجل المغرور دوماً ما تعبث بثقته في نفسه أنثى لا مبالية.

حاول جاهداً صنع يوم لن تنساه أبداً.. واختلاق مواقف تجعلها تفكّر به بأيّ طريقة، لم ينتظر امرأة يوماً كما ينتظرها، هو الآن طفل يرى لعبته المفضّلة على الرف العالي في غرفته، يسعى جاهداً لإنزالها.

اختيار المكان لم يكن سهلاً عليه، فتاة مثلها لن تغريها شاعريّة الأماكن،

فهو ينتقي بعناية شهقة البدايات، لكنّه هذه المرّة سيترك كلّ شيء.

وسيسمح لنفسه بأن يكون حجر شطرنج يحرّكه القدر، يرى فيها تغيّراً جذريّاً، لحياته.. يحبّ الألغاز، دوماً كان يضعها..

لكنّه الآن أمام لغز صعب، يحتاج أعصاباً باردة لحلّه.

ما كان يفارقه هاجس التقرّب منها، هو رجل يملك أحلاماً لا تعرف التواضع.. يصنع بدايات ونهايات خرافيّة تليق به..

يعلم جيّداً أنّ وراء لامبالاتها به، فضول حول معرفته جيّداً،

أو بالأحرى معرفة مايريد، لكنّه لن يسمح للظروف بأن تجعلها تبادر.

ولن يدير كعادته المعركة قبل بدئها ولن يستعدّ للفوز أبداً، سينتظرها كما لو أنّها آخر نساء الأرض وأكثرهن فتنة، فَللفوز حينها نكهة خاصة لم يتذوّقها قَطّ.

في لقائه الأوّل سيجعلها تستشعر ألحانه فقط، دون أن تخلع حذائها لترقص طرباً، واضعاً أمامه المقولة: "ما نكسبه بسرعة، نخسره بسهولة"، وهو غير مستعدّ لخسارة كبيرة إلى هذا الحدّ.. سيمتلكها ببطء شديد.. وسيخلع رداء قائد المعركة، ويجرّد نفسه من أيّ سلاح..

اختار مطعماً يطلّ على البحر، يُسمِعون الزوّارَ فيه موسيقى كلاسيكيّة.

ولم يخطّط للحديث الذي سيدور بينهما..

- أأعجبك المكان؟

- نعم، هادئ وراقٍ.

هزّ رأسه مبتسماً لها، ثمّ بعثر نظراته في المكان مبتعداً عن عينيها اللتين ستجبرانه على بدء الجولة الأولى من المعركة قبل وقتها بكثير.

- إذاً.. ما الموضوع الذي أردت التحدّث معي به؟

- ليس موضوعاً محدّداً بصراحة، بنبرة مازحة قال: فينا نعتبرو فضفضة أو عندك مشكلة؟؟

- لا أبداً، تفضّل أنا أسمعك.

لم يعرف ما يقول، الأحرف الأبجديّة وقفت عاجزة عن وصف ما يدور بعقله، لم يخطّط لشيء، ولا يستطيع التفكير، ما توقّع من القدر كميناً محكماً كهذا.

- أخبريني أوّلاً، كيف جئتم إلى هنا، حدّثيني عن تفاصيل هذا القرار وهل أردتِ القدوم أم أجبرتِ؟

رأتها فرصة سانحة لتشرح ما يدور بنفسها منذ قدوهما وعن معاناتها التي لم يعرف بها أحد ولم يعرها والداها أيّ اهتمام من وجهة نظرها.

- لم يكن قراراً جيّداً بالنسبة لي.. والدي من قرّر القدوم إلى هنا.

بدأت تسترسل في شرح تفاصيل رحلتها إلى لبنان وكأنّها هي من طلب الفضفضة وبدأت بذاك المساء الذي قرر فيه والدها السفر إلى لبنان والاستقرار هناك، فالوضع في سوريا يتفاقم يوماً بعد يوم.. والأطراف المتنازعة اتّخذت رائحة

الموت والدمار هواء يتنفّسونه.

محاولاتها لإقناع والدها بالبقاء في دمشق باءت بالفشل، قراره كان حاسماً لكنّها لا تستطيع ترك كلّ ما لديها والابتعاد بسهولة عن أصدقائها ودراستها والمنزل الذي كبرت به، والبلد الذي كان أوّل شهقة للحياة..

تاركة كلّ حلم انتظرته وترقّبته..

متّجهة نحو واقع مجهول.

لم تستطع النوم في تلك الليلة وانتظرت الصباح كي تخبر أصدقاءها بالكارثة التي حلّت عليها.

لم يكن الابتعاد عن أشخاص كبرت معهم وبنت أحلامها معهم موقفاً عاديّاً أبداً، حتّى أنّ إخبارهم بما قرّر والدها لم يكن سهلاً.

نظرتها لدمشق تغيّرت منذ اللحظة التي علمت فيها بما سيحدث،

فأيّ تفصيل تراه في الشارع بات يبكيها حنيناً قبل ابتعادها كالياسمين والسماء وكلّ الأشخاص في الشوارع..

حتّى صوت الرصاص.. أصبح لحناً على مسمعها.

يومان فقط متبقّيان قبل موعد السفر.. أرادت أن تخزّن أكبر قدر ممكن من الذكريات التي تحتضنها إذا ما اشتدّت رياح الغربة.

لبنان كانت تبعد مسافة قصيرة عن دمشق، لكنّ فكرة الاستقرار هناك أعطتها نظرة عن محيطات وجبال ستعبرها بعيداً عن وطنها.

يوم السفر قد حان.. حقائب في الصالون، والداها يتفقّدان الأوراق وأختها ترتدي ملابسها، تفاصيل بسيطة رأتها سيلا نهاية لكلّ شيء أحبّته يوماً هناك.

السابعة صباحاً، وصلت السيّارة وبدأ والدها بنقل الحقائب.

بالنسبة لها توقّف الزمن عند السابعة صباحاً من ذاك اليوم.

في الطريق كانت تسمع أغنية "حكيلي عن بلدي" لفيروز وتتأمّل كلّ شجرة وكلّ لوحات السيّارات التي كتب عليها "دمشق"، وحاولت جاهدة إقناع نفسها بالأمر الواقع وانتظار الصيف لزيارة دمشق كما وعدها والدها..

لم تستطع النوم طوال الرحلة، فقد انتظرت الوصول إلى الحدود السوريّة لتذرف آخر دمعة في وطنها وهي تتأمّل كلّ عسكريّ رسم على زيّه علم البلاد.. إحساسها في ذاك اليوم

كان عاديّاً جدّاً وفي غاية النقاء.

غادرت الحدود السورية متّجهة إلى بيروت.. وعند وصولها للحدود اللبنانية شعرت أنّها تخون كلّ تفصيل في دمشق، كلّ شارع وزقاق.. وكلّ ياسمينة في المدينة، وكلّ ذكرى عاشتها هناك.

طلب العسكريّ اللبنانيّ منهم النزول لتفتيش السيارة واستكمال إجراءات الدخول، فكانت نظرتها إليه تختلف عن نظرة الجميع، رأته يكرههم وينظر إليهم باحتقار، أمّا هو فكان لطيفاً جدّاً وتعامل بكلّ احترام وإنسانيّة، حتّى أنّه تمنّى لهم صلاح حال سوريا. وأخبرهم أنّه يحبّ دمشق كثيراً وله فيها ذكريات منذ طفولته.

لكنّها كانت ترسم بمخيلتها بلداً لا يكنّ لهم سوى الكره، وأيّاماً صعبة جداً مقبلة عليها.. كما أخبرتها صديقتها ، ظنّاً منها أنّ سيلا تملك قرار البقاء في حال كرهت ذاك البلد..

استكملوا الإجراءات ووصلوا إلى مدينة بيروت، بدأت تقارن كلّ شارع ومبنى تراه بدمشق قائلة لوالدها: هل هذه ما تركنا دمشق لأجلها شوارعها بشعة ولا يوجد فيها شيء يشبه دمشق.

– انتِ لم تَري من لبنان سوى هذا الشارع بعد، مع الأيّام ستكوّنينَ صداقات وتخرجين للتعرّف على هذه المدينة، إنّها جميلة جدّاً وأناسها طيّبون..وبها كلّ ما هو مسلٍّ، كما تشتهر بموسيقيّين كبار ومراكز للتدريب الموسيقي، سوف تنتسبين لأحد المراكز كي تستكملي دراستك. خذي وقتك ولا تحكمي على ظاهر أي شيء.

لست سعيداً بالسفر وترك وطني وبيتي وأهلي، لكنّي أب.. وواجبي تجاهكم أن أفعل ما هو الصواب لإبقائكم آمنين ولو استدعى ذلك أن أجوب بكم أقاصي الأرض.

سكتت ولم تستطع البوح بالألم الذي تشعر به، فقد كانت نبرة والدها غريبة جدّاً، كانت تسمعها للمرّة الأولى، حزناً عميقاً كان يخفيه وراء ابتسامته.

عند الوصول.. لم تستطع سوى أن تظهر له أنّها بخير، فقد أحسّت أن غضبها أتعبه، فوق جرحه وحزنه.

وصلوا لمنزلهم الجديد الذي استأجره لهم صديق والدها قبل وصولهم كي لا يضطروا للإقامة بفندق والبحث عن شقّة، كان منزلاً صغيراً لكنه أصغر من منزلهم الذي اعتادت عليه، لا بأس فشعورها الآن تجاه والدها أكبر من أيّ شيء، المهمّ أن يكون بخير وأن لا تكون سبباً في أيّ تعب له، خاصّة بعد أن

أصابه مرض في القلب جرّاء الأحداث التي أفقدته مصنعه.

تقاسموا الغرف وبدأوا بالترتيب.. حتى أنهوا كلّ شيء.

في المساء ذهب والدها ليحضر لهم العشاء.

صباح اليوم التالي استيقظت ولم تجد أحداً في البيت،

– ها قد بدأنا بالمعاناة، الجميع خارج المنزل وأنا وحدي

إلى أين سأذهب الآن وأنا لا اعرف أحداً ولا أعرف شوارع هذه المدينة البائسة؟ ساعدني يا الله وخفّف عنّي.

دخلت المطبخ ووجدت الفطور الذي تركته والدتها لها قبل ذهابهم، تناولت القليل وأعدّت فنجان شاي وجلست على الشرفة، تبحث في وجوه الأناس في الشوارع عن أصدقاء ربما لن تراهم اذا ما فكّر والدها بالعودة، فبالطبع لن يسمح لها بالذهاب إلى دمشق وحدها في ظلّ ما يحدث.

مساءً طلبت من والدها اصطحابها إلى البحر..

وعند وصولهم لمنطقة الروشة حاولت إقناع نفسها أنها تمضي إجازة هنا،

إجازة مفتوحة.. ريثما تهدأ تلك الحرب المجنونة.

أبي، هل أزعجك عدم رغبتي في البقاء هنا؟

– بالطبع لا فأنا أيضاً لا أريد ذلك.. لكن سلامتكم أكبر من رغبتي وخياري.

– أبي أنا فقط أشعر أنّي لا أنتمي إلى هذا المكان ولا أعرف أيّ صديق.

– إنّه اليوم الثاني لنا هنا، مابكِ؟ ثمّ هذا الصديق الذي يمشي بجانبك الآن

ألا يعجبكِ؟

أجابته ضاحكة:

– هههههه بالطبع يعجبني،

– بنبرة مازحة أراد أن يخفّف عنها

وقال بلهجته الدمشقية:

– بتعرفي إنّو في دراسة علميّة بتقول إنّو الناس يلّي بيكرهوا دول معينة، بينغرموا بأشخاص من هَاي الدول؟

– بابتسامة ردّت:

لا ما سمعت فيها، ولشو عم تلمّح؟

– مين بيعرف؟ يمكن تتجوّزي لبناني ها

– بابا خلص، ما رح يصير هيك شي.

ثمّ أجابها مازحاً:

- امشي امشي، كأنّو مصفوفين صفّ عباب البيت.

بعد أسبوع من وصولهم لبيروت بدأت تشعر بالملل كثيراً داخل المنزل.

فهي لا تستطيع الخروج ولا تعرف أماكن ولا أصدقاء، بعكس ما كانت عليه في دمشق. حتّى والدها منشغل بالسفر لملاحقة أعماله خارج لبنان

ووالدتها منشغلة مع أختها في شراء أثاث جديد وأغراض للمنزل.

- أمّي أريد أن أفعل شيئاً هنا، يكاد الملل يقتلني.

- ألم يخبرك والدك بمعاهد موسيقيّة أرادك أن تتسجّلي فيها؟

- بلى، أين هي تلك المعاهد؟

- انتظري عودة والدك وأخبريه، ليأخذك غداً فهو يعرف هذه المدينة جيّداً.

حتّى هذه الفكرة لم تخفّف من وطأة الحزن بداخلها، لكنّها لا تملك الخيار،

عليها الاعتياد على الحياة الجديدة التي أعدّها لها القدر على طبق من فضّة.

في المساء أخبرت والدها عند عودته برغبتها في الانتساب لأحد تلك المعاهد ووعدها باصطحابها في اليوم التالي.

أعدَّت نفسها صباحاً وذهبت معه، قابلا مدير المعهد ورحّب بهما وسألها الأسئلة الروتينيّة للتسجيل.

الآن أصبح لديها شيء تستيقظ كل يوم لتذهب اليه.

أخبرت أصدقاءها في دمشق عمّا فعلته في هذا الأسبوع والأماكن التي زارتها وعن انتسابها للمعهد الموسيقي،كانت تخفي بين طيّات حزنها ابتسامة لا إرادية، وكأنّها سعيدة بشيء ما، حتّى هي لا تعرف ما هو..

أسبوعها الأوّل في المعهد كان مملّاً.. لم تكن تختلط بأيّ شخص رغم أنّ المدرب قام بتعريفها على الطلاب وبعضهم رحّبوا واحتفوا بها.. لكنّها كانت تتعامل برسميّة مع الجميع.

من بينهم فتاة تدعى "غريس" كانت الوحيدة التي حاولت التقرّب منها رغم رسميّة تعامل سيلا معها.

- مرحباً سيلا

- أهلاً

- لديّ فضول حول معرفة معنى اسمكِ؟

- اسمي يونانيّ الأصل، ومعناه الحنين للوطن.

- جميل جدّاً، وغريب

- شكراً لكِ

- سأذهب للتسوّق اليوم سيلا، ما رأيك بالذهاب معي؟

- لا أستطيع، لم أخبر والدتي

-أخبريها، السوق ليس بعيداً عن هنا، ولن نتأخّر، هيّا أرجوكِ

- حسناً، لِمَ لا؟

اتّصلت وأخبرَتها، وسرعان ما وافقت بشرط ألّا تتأخّر.

سَعِدَت والدتها لهذا كونها بدأت تكوّن صداقات وتخرج وتقضي وقتاً.

ذهبت مع غريس للتسوّق وبعد ذلك اتّجهتا إلى أحد المقاهي المطلّة على البحر، قضت وقتاً جميلاً حتّى أنّه كان يومها الأوّل الذي لا تنتظر انتهاءه بفارغ الصبر.

***

عند انتهائها من إخباره، بقي شارد الذهن محدّقاً بها، لكنّه يسمع كلّ ما تقوله.. دخلت حياته كإشارة استفهام جميلة والآن يتعجّب من إحساسه تجاهها.. متعته الآن في طريقه إليها لا في الوصول.

- أتسمعني؟

- نعم، نعم لاأدري ما أقول، هل أتمنّى انتهاء الحرب أم لا؟

- ولم لا تتمنّى ذلك؟!

- كي تبقي هنا..

ثلاث كلمات كانت كافية لإشعال نار الفضول بداخلها، لكنّه سيختار الطريق الطويل ولن يصل بسهولة. يريد إشعال الشغف، يعيش متعة افتقدها دوماً مع سواها.. كان يهمّ بصنع أحلام واقعيّة معها.

فكلّ النساء قبلها قيلولة انتهت بمجرّد ما أصبحن خارج السرير.

في يومها التالي استغرقت وقتاً أطول في اختيار ملابسها، ووقتا أطول في وضع مساحيق التجميل، وعند وصولها لمكتبها بدأ فضولها يتساءل عن عدم اتّصاله أو طلبها لمكتبه.

لم يخلُ يومها من التفكير به، فكلماته الثلاث اخترقت

حاجز اللامبالاة لديها لتستقرّ في زاوية معيّنة بقلبها، لم يطلبها أو يتّصل حتى، هل حديثها المطوّل أشعره بالملل، لكنّها لم تشعر بذلك مطلقاً.

بدأت تبحث عن أوراق تأخذها إليه لتسأله عنها، أو تذهب بحجّة الانصراف باكراً اليوم.

قضت يومها كلّه تبحث عن أسباب لعدم الاتّصال. لم تستطع منع نفسها من سؤال سكريتيرته بعد انتهاء الدوام.

- أين الأستاذ زياد؟

- لم يأتِ اليوم، ولم يتّصل

فاجأها غيابه في هذا اليوم بالذات، الذي رسمت فيه حواراً معه تستطيع من خلاله معرفة قصده من تلك الكلمات الثلاث.

كيف نسيت أخذ رقمه؟ ولِمَ آخذه؟ بالطبع لن أتّصل لأعرف ما حصل،

قد يكون مريضاً!

لا لا، لو كان مريضاً لكانت السكريتيرة أخبرتني.

مساءً كانت جالسة تقرأ كتاباً في غرفتها، رنّ هاتفها في تلك اللحظة، رقم غريب لا تملك في هاتفها سوى غريس وأمّها

وأختها ووالدها. لاشكّ أنّ أحداً يطلب الرقم الغلط.

- ألو

- هل أيقظتكِ؟

- لا، من معي؟

- اعتقدتكِ تعرفين

- وكيف أعرف؟

- زياد

ابتسمت ثمّ سألته بعفويّة مطلقة: هل أنت بخير؟

- نعم بخير، لم أنتِ قلقة؟

- لم أرك اليوم وسألت نغم عنك، أخبرتني أنّك لم تتّصل، فقط ذلك.

ساد للحظة بينهما صمت البدايات قال ليبدأ بإشعال فتيل المعركة:

سعيد أنّكِ قلقتِ، ومدين لتلك الحرب، أراكِ غداً، ثمّة ما يجب عليّ إخبارك به،

تصبحين على خير.

صدق حدسها، هو يكنُّ لها شيئاً، أيّاً يكن تنتظر الغد بفارغ الصبر.

عند وصوله للشركة طلبها لمكتبه فوراً، جلس يشكُّ في نظرياته

وصحّة ما يفعل، لكن سرعان ما أعلنت زينتها وشعرها فوزه في هذه الجولة،ابتسم بمكر عند رؤيتها..

- صباح الخير

- صباح النور.. أردتُ شرب القهوة معكِ قبل ذهابي للمطار، طائرتي بعد ثلاث ساعات.

لم تكن تنتظر خيبة يفاجئها بها، وهي تحاول إخفاءها قالت:

- جيّد، إلى أين؟

- إلى الإمارت، شركتنا هناك.. عليها إشارات استفهام كثيرة، يجب عليَّ السفر لتفقّد الوضع.

أراد الابتعاد كي يضمن عدم امتلاكها بسهولة، كي لا يخسرها.

كان واهما حين اعتقد أنّه رجل يملك كلّ شيء، ها هو الآن يسافر بحجّة واهية، لأنّه يحتاجها فَبالتالي هو لايملك شيئاً.

سافر بأحاسيس لم يعشها من قبل، مشاعر متناقضة. لم يسبق له وأن كان المطار مكاناً يزعجه ولا الطائرة كذلك..

لكن كان عليه أن يتناولها بجرعات محدودة.

مدّة اسبوعين لم تكن تكفي لإيقاعها بشباكه، لكنّه استطاع شغل حيّز كبير من تفكيرها، توقُّعُها بأن يتّصل بها حين يصل كان خاطئاً.

حتّى أنّه لم يتّصل بأنطوان ليطمئنّ على سير العمل.

أيّ شعور ينتابها، هل تشتاقه.؟!

كان على علم بكلّ ما سيحدث عند اختفائه، أتقن دوره جيّداً

لكنّه كان يراها في كلّ كأس نبيذ يحتسيها وفي كلّ رشفة

كان يذهب بها بعيداً.. نحو أفق ينتمي لعالمه الخرافيّ.

لم تستطع تحمّل ذاك الشعور الذي لا تملك أيّ وصف له، استعانت بغريس علّها تستطيع تفسير ما يحدث معها.

- غريس.. بمَ تشعرين حين تفتقدين شيئاً ما

أجابت بسخرية:

- بالجوع

- غريس رجاءً، جاوبيني

ردّت:

- أشعر بشيء، ترى هل هو صحيح؟؟!

- جاوبيني أوّلاً. كفّي عن المزاح

- لا أدري سيلا، أشعر أنّي أشتاقه وحسب، لكن أريد شرحاً مفصّلاً والآن حالاً، لحظة.. هل هو أنطوان ذاك السمين معكِ في المكتب؟؟

أجابت:

- لا ليس أنطوان. لا يوجد أحد. لا أدري ما يحدث لي

وكأنّ شيئاً خرج منّي دون أن أعلم به. والآن أشعر بشيء ينقصني لكنّي لا أعرفه.

- هل قابلتِ أحداً مؤخّراً سيلا؟

- نعم

- من؟؟

- زياد

أجابت باستغراب شديد:

- زياد الخطيب؟؟!

- نعم

علّقت غريس:

- أجل أجل.. وهو مسافر الآن وأنتي تشعرين بـ..

سيلا، هل حدث شيء بينكما؟

- هل جننتِ ؟ كان مجرّد فنجان قهوة على البحر

- وما يريده رجل متزوّج من فتاة مثلك ليشرب معها قهوة على البحر؟

- متزوّج؟؟!!!!

- نعم.. ألم تعلمي ذلك؟!

سَعت لعدم إظهار خيبتها لِغريس، لكنّها اختلت بعدها بنفسها.

كانت الأخطاء تصطفّ أمامها، وكادت توقع نفسها بمصيدة أعدّها لها،

مديحه مخادع. سلاحه الوهم، ألقى على عينيها غشاوة جميلة، لم تعد تعرف ما تريد.. ولم تعترف لنفسها أنّ الموضوع يعنيها.

أجابتها:

- بالطبع أعرف، لكن لا يعنيني الموضوع هو مجرّد صديق.

مساءً ذهبت مع غريس لحضور حفله أعدّتها صديقتهما في المعهد، هي لم تستهوها الحفلات منذ غادرت دمشق، لكن في ذلك اليوم بات يستهويها كلّ ما يلهيها عن التفكير بما يدور برأسها.

ارتدت ثوباً ضيّقاً بسيطاً، فيروزيّ اللون يصل لركبتها. وأسدلت شعرها الأسود على كتفيها. كانت الأجواء صاخبة والحلبة تزدحم بالراقصين. جلست على البار ورفضت محاولات غريس لدعوتها للرقص.

كان يراقبها منذ دخلت، شاب أسمر طويل بكتفين عريضين وعضلات بارزة. أثاره الفضول لمعرفة سبب بقائها جالسة وحدها. اقترب منها قائلاً بلهجته اللبنانية:

- مرحبا، فيني اقعد حدِّك؟

- أهلين، تفضّل

- ليش مش عم ترقصي؟

- ما عبالي

- وليه جيتي إذا ما عبالك؟!

بنظرة جدّية رمقته بها:

- عفواً!!!

- ماقصدي شي. طيّب ترقصي؟

- لا شكراً

لم تكترث بجاذبيّته وبعطره الملفت ولا حتّى بطريقة كلامه. ابتسمت له وأدرات وجهها عنه.

اقتربت منه فتاة وقالت له:

- شو وسام. وين رحت؟

لم تلتفت سيلا للفتاة وتابعت شربها للكأس أمامها

أجاب:

- ما عَمطرح، عم سلِّم عصديقة إلي

سألته بعد مغادرة الفتاة:

- بس أنا ما بعرفك صحّ؟

أجاب مبتسماً

- منتعرّف

ضحكت وقالت:

- بتشرّف

سارع لمدِّ يده قائلاً:

- أنا وسام

بـ ابتسامة بسيطة ردّت:

- تشرّفنا، سيلا

تحدّثا لمدة لم تتجاوز خمس دقائق عن عمله ودراستها. كان يعمل في إحدى الصحف الإخبارية في بيروت.

- تشرّفت بمعرفتك آنسة سيلا..

- شكراً لك

همَّ بالمغادرة ثمّ عاد وهمس بأذنها:

لم أعرف معنى اسمك، لكنه ملفت كصاحبته..

ثم عاد لطاولته.

جاءت غريس وتكاد الفرحة تقتلها:

- كم هو جميل، ماذا يريد؟

- لا شيء. اسمه وسام جاء للتعرّف وذهب

بغضب ردّت غريس:

- وذهب.!

- نعم

- لا أعلم لمَ انتِ متعجرفة هكذا.

ردَّت سيلا بمثل شعبي ساخرة:

بيعطي الحلاوة لـَ يلّي مالو سنان.

***

ما كانت تشعر به لا علاقة له بالشاب، أيّاً كان هو

لم تكن جاهزة للقاء شخص غير زياد، لكأنّ الأمر عدوى لا مفرّ منها.

أيقظها صباحاً صوت هاتفها. بحثت عنه وهي لا تزال تغمض عينيها وأجابت دون معرفة المتّصل

- ألو

- لا زلتِ نائمة؟؟

- من المتّصل؟

- أنا زياد، أردت أن أقول لك صباح الخير، اشتقت لصوتك

أجابته متناسية رسميّة علاقتهما:

- لو كنت اشتقت إليّ لاتّصلت

- لمَ لم تتّصلي أنتِ؟

- خشيت أن تكون مشغولاً

- حسناً، أردت الاطمئنان عليكِ.. عودي للنوم

أغلق السماعة على سعادتها بعد إنهائه مناورته العاطفيّة التي أقامها عند شعوره بانشغالها عنه.

محاولة الاستيلاء على تفكيرها نجحت.

انهار صمودها أمام نفسها. أيقنت أنّه يهمّها جدّاً وأنَّها معجبة به كثيراً.

لكن لِمَ هو.؟ رجل متزوّج ولا يحقّ لها امتلاكه.

ربّما يكمن الجواب في مقولة قديمة (كلّ ممنوع مرغوب).

تعود هذه المقولة إلى قصة الخليقة الأولى. عندما أقدم آدم عليه السلام وزوجته على أكل تفّاحة من شجرة مُنعت عنهما بسبب وسوسة الشيطان وإغوائه، فأمر الله سبحانه وتعالى بإخراجهما من الجنة، وقد وُصف ذلك بأنه مثال على الرغبة في الممنوع.

أتراها ترغب به لأنّها لا تملكه، أم أنّ لهيب الرجل الصعب استطاع التمكّن منها.

تحاول الاقتناع بأنّه مجرد رهان بينها وبين نفسها "أستطيع إيقاعه بشباكي".

رجل مثله لن يتكبّر على فتاة مثلي.

****

قلبها يريده بشدّة وعقلها يرمي به بعيداً.. عيناها تنتظران رؤيته ويداها تغسلان آثاره كسراب مغرٍ، كسُمٍّ لذيذ..

****

أرادت الذهاب مع والدها لدمشق لإحضار أوراق ثبوتيّة ولتلتقي بأصدقائها.

لكنّها كانت تضمر نيّة أخرى خلف ذهابها. فهي أخذت إجازة أسبوع من العمل و أوصت غريس بعدم إخبار أحد بمكانها أو سبب ذهابها.

أرادت الابتعاد لتتأكد من حدسها الأنثويّ الذي طالما أخبرها أنه معجب بها لكنّه يكابر، فالبعد دائما أنجح وسيلة لنعرف قيمتنا الحقيقيّة عند أشخاص معيّنين.

مضى يومان على غيابها، لم تتّصل غريس لتخبرها أنّه سأل عنها.

– حسناً، أتمنّى أن يخطئ حدسي. فهو خبيث متزوّج.

بالطبع لم تكن تتمنّى أن يخطئ حدسها، فهي تنتظر اتّصال غريس بفارغ الصبر، وتتّصل بها بين الحين والآخرعلّها نسيت إخبارها باتّصاله.

قرّرت الذهاب لشرب فنجان قهوة في دمشق القديمة لمقهى يدعى بالعاميّة (انتيكا) وتجلس وحدها تعيد بعض الحسابات بينها وبين نفسها، لتُفاجئها رسالة تصلها على هاتفها كتب فيها: لو كنت قريباً لسبقتكِ لمكان عملك، رتّبتُ الصباح لأجلكِ

ووضعتُ أزهاراً على المكتب وورقةً صغيرة بين أوراقكِ...

بين صدمتها بما كتب في الرسالة ومعرفته لرقمها السوري الذي لا يعرفه سوى غريس، فهي أوصتها ألّا تخبره بأيّ شيء عنها.. وما الورقة التي تمنّى وضعها لها؟!

أتراها ستتّصل بغريس لتوبّخها أو لتشكرها للمساعدة في إثبات صدق حدسها!

بابتسامة مكر مخلوط بطيبة تقول لنفسها:

- سهمي الآن استقر بصدره ولن يغادر أضلعه أبداً.

شيء ما خارج إرادته أرسل لها، لم يكن يعرف كيف يقول لها أحتاجك دون أن يهتزّ كبرياؤه.. أراد أن يخبرها بين سطور رسالته، إقرئيني بحُبّ..

كلّ شيء فيها بات يضحك، تظهر فرحها بصدق حدسها وانتصارها على كبريائه، لكن ما خفي وراء كل ذلك، كان فتيلاً على وشك الاشتعال.

أحبّت ما فعل، فهي أيضا لا تجيد الحديث المباشر، أرادت خلق سبب تافه لتتّصل به، لتسرّب له بعضاً من إحساسها الذي يختنق بحبالها الصوتيّة عبر كلمات مبهمة.

اتّصلت بغريس وسألتها عنه.

- ماذا أخبرتِه؟ وماذا سألك؟!

- ألن تقولي مرحباً؟

- أخبريني ماذا حصل؟

- كفّي عن التصنّع، كنتِ تنتظرين هذا الاتصال

- أنا؟ غير صحيح..

ضحكت غريس وأجابتها بطريقة مضحكة:

- ولاشي، دقّلي وقلّي وينا سيلا، قلتلّو بالشام

قال رجعت؟؟ وحسّيتو انصدم وانقهر الأخ، قلتلّو لا نزلت تقضي فترة وطلب رقمك، فقلتلّو ما بتقبل إعطيك ياه،

بعدين عطيتو ياه لأنو إنتي من جوّا هيك بدّك.

- سأقتلك حين أعود غريس.

- قرّرت عدم الردّ على رسالته، علّه يتّصل ليطمئنّ عليها.

كانت على يقين بأنّها ستتعب كثيراً إذا ما ارتبطت به، قالت ليس لديَّ ما أفقده، لا يستطيع المرء أن يفقد شيئاً هو بالأساس ملك لغيره.

لكنّها أيضاً تعلم جيّداً أنّ الإنسان في حال خسارته لشيء هو ملك غيره فإنّه سوف يعذّب نفسه مرّتين، مرّةً بجهلهِ ومرّة بفقدان ما ليس له.

أمّا هو فظنّ بعدم الردّ على الرسالة أنّ اهتمامها به كان مجرّد وهم صنعه بنفسه، وأنّه سيضع لنفسه نقطة سوداء في كتاب تاريخه الأنثويّ حين يصطدم أنّه لا شيء بالنسبة لها. لكنّ روحه تبقى توّاقة لفتاةٍ لا يستطيع ألّا يفكر بها، فتاة ضائعة في قصر مرصود بات يظنّ أنّه لن يصل إليها يوماً.

يسأل نفسه دوماً لمَ هي؟؟!

ربّما قالت له شيئا يوماً ما، وقع في قلبه للأبد، شيئاً عاديّاً جدّاً، لكنّه كان في اللحظة المناسبة.

يراها كأغنية من زمن عتيق، كشجرة ياسمين، إمرأةً باتت كلّ أحلامه تحكي عنها، وكلّ أمانيه مرتبطة بها.

لكنّ شرقيّة الرجولة بداخله ستجعله يبتعد تدريجيّاً عند أوّل خلاف بعد وقوعها بحبّه، فمهما أقسم الرجل بالأبديّة سيمحو النقطة من كلمة "رجل" ليرحل محقّقا هدفه بامتلاك فتاة لم تُعِرهُ انتباهاً يوماً ما.

فالفتاة التي لا تعطي الرجل المغرور انتباهها، تغدو بنظره

الفصل السنويّ الخامس، وثامن أيّام الأُسبوع، وعينه الثالثة وساعته الخامسة والعشرين.

اتّصل بها علّه يجد بارتجاف صوتها ما فقد من كبريائه بعدم الردّ على رسالته، كانت تنتظر اتّصاله كصائم ينتظر ارتشاف الماء، لكنّها لن تجيب من الرنّة الأولى، كيدها الأنثوي لم يفارقها ابداً.. ردّت:

- ألو

- هل كان ضروريّاً أن تنتظري الاتّصال؟

- أهلاً

- لماذا سافرتِ؟

- موضوع شخصيّ

- وكم سيدوم؟

- لا أعرف، أسبوعاً آخر، هل هناك مشكلة بشأن العمل؟؟

- هناك مشكلة بشأني..

- عفواً!!

- سأعود قريباً، ولا أحبّذ أن أدخل الشركة ولستِ فيها..

بعد هدوء وصمت طال وقته باغتها بإنهاء المكالمة:

- أراكِ إذاً.. مع السلامة

كانت في تلك اللحظة تقلّب شفتيها باحثة عن سبب آخر غير تعلّقه ليبحث عنها ويلاحقها برسائله واتّصالاته.

تأكّد هو حينها أنّه يتوجّب عليه الانتقال لمرحلة أعلى، وبطريقة مباشرة كان عليه التصرّف، فالتلميح ليس ما تهواه أنثى مثلها، ذاك البرود الذي تحدّثت به، كان صدمة لم يتوقّعها أبداً.

هي.. لم تستطع التعبير عن مدى السعادة التي اجتاحتها سوى بالضحك والرقص، كانت تخفي عن نفسها تعلّقها السريع به، وتظهر فرحاً بانتصارها.

بعد ذلك الاتّصال، ربما سيفرغ زياد علبة السجائر، ما فعلته لم يزده إلّا تعلّقاً ورغبة في الاقتراب أكثر.

يتّصل بصديقه ليطلب منه التوجّه إلى دمشق وملاقاته هناك بأسرع وقت ممكن دون إعلامه بالسبب.

استطاع أن يخيف سعادتها يومان، عندما توقف عن الاتّصال وإرسال الرسائل.

لكنّه يعود ليرسل لها:

آنستي الجميلة، ربما تحتاجين فنجان قهوة بعد ساعة في مقهى يدعى "بيت ستّي" لتبدئي صباحك.

أصابها الذهول ممّا قرأت، لم تتوقّع أبداً قدومه على الرغم من أنّها رفعت سقف توقّعاتها عالياً، لكنّها لم تصل لعلوٍّ شاهق كهذا أبداً.

دون تفكير سارعت لتنظر في المرآة، ثمّ تفتح خزانتها وتخرج كلّ ملابسها منها، ثمّ تتّجه لتحضر مساحيق التجميل وتذهب لتستحمّ سريعاً،

انتهت من التزيّن واتّجهت للمكان الذي تحدّث عنه، لكن بقي ربع ساعة على الموعد، ولم تحبّذ أن تصل قبله.

أرادت أن تمشي بشوارع دمشق القديمة، والقريبة للمقهى ريثما يمضي القليل من الوقت، ثمّ عادت بعد عشرين دقيقة، دخلت وبدأت بالبحث عنه،

ربّما لم يصل بعد، تمنّت لو أنّها تأخّرت أكثر، اختارت طاولة مقابلة لباب الدخول، كي تستطيع أن تلمحه عندما يصل.

عشر دقائق مرّت ولم يصل، أتراه لم يأتِ، لكن ليس هناك معنى آخر للرسالة، بدأت الأفكار تأخذها يمنة ويسرة، تقدّم النادل وسألها ما تريد أن تشرب، طلبت فنجان قهوة وقرّرت أن تمشي بعد شربه وعدم انتظاره أكثر.

بعد ربع ساعة تقدّم نحوها شابّ وسألها:

- مرحبا، آنسة سيلا؟؟

- باستغراب شديد أجابت نعم، من تكون؟

- أنا حسن، صديق زياد، طلب منّي مقابلتكِ هنا لأعطيكِ أمانة لكِ، واعتذر على التأخير لكن تعرّضت لظرف أجبرني على التأخر.

بغضب واضح هزّت رأسها وشكرته.

خيبتها بعدم مجيئه كانت أكبر بكثير من فضولها لمعرفة محتوى العلبة التي أرسلها، عادت للبيت ورمت العلبة على السرير، ثمّ جلست تشاهد التلفاز.

كان ينتظر أن تتّصل لتسأله عن عدم مجيئه، لكنّها دون قصد، جعلته يشعر بالخيبة مجدّداً لعدم اكتراثها بمحتوى العلبة.

وهي كانت تكتب سطراً وتعود تمحوه، تكتب سطراً وتتراجع لتشطبه، ثمّ ترمي بهاتفها بعيداً وعلى أعتابه تركت هوساً يكاد يجرفها إليه.

❋❋❋❋

الآن.. باتت تحتاج تأشيرة انعتاق من زيف الحلم الذي تعيشه، تكاد تحتاج قَرناً لتغتسل من وهم مشاعره المخيفة.

❋❋❋❋

يجتاحها إحساس كلعنة موبوءة، تتربّص بها ملامحه الرجوليّة، وكم يخيفها أن يكون كلّ ما تخشاه صحيحاً، لكنّها ستتّكئ على عكّاز كبريائها لتقف بشموخها أمامه مجدّداً.

في المساء تذكّرت العلبة، ركضت لغرفتها مسرعة وفتحتها، كان بداخلها علبة صغيرة اخرى بداخلها ورقة مرفقة بحرف "س" من الذهب، وكتب عليها بخطّ ذهبيّ، اتبعي حدسك أينما كان، فحدس الأنثى لا يخطئ أبداً، أراكِ مساءً في دار الأوبرا عند الساعة العاشرة.

للمرّة الثانية يصيبها الذهول، تقول لنفسها من هذا الرجل؟ ممَّ صُنِعَ؟

ربّاه ما الذي يحصل، إنّه هنا، ثمّ تنظر للساعة بخوف، إنّها السابعة، لازلت أملك الوقت. هل يجب أن أتّصل لأشكره وأعتذر عن الدعوة، أم أذهب وألقاه هناك دون أن أتّصل بِه؟!

لكن سرعان ما تنشغل بما تريد ارتداءه، لتحسم الموضوع برغبتها اللاإراديّة بالذهاب.

مجدّداً تفرغ خزانتها بكلّ الملابس، ولا تجد شيئاً ترتديه، فكلّ ما أحضرته معها ملابس لكلّ يوم، ولا تملك وقتاً للذهاب للسوق ولا حتّى نقوداً كافية لشراء فستان سهرة.

اتّصلت بصديقة لها وسألتها عن فستان لحفل كهذا، ثمّ ذهبت لتختار أحدها.

اتّجهت أيضاً لصالون التجميل وطلبت تسريحة بسيطة جدّاً ومكياجاً خفيفاً، ثمّ عادت للمنزل لارتداء الفستان، وعند خروجها سألت نفسها:

ترى ما عساني أفعل الآن؟ ما الذي يدفعني لأكون برفقة رجل مثله؟

وما الذي سيحدث بعد هذا اليوم؟

سرعان ما تناست تلك الأسئلة وأقنعت نفسها بأنّه مجرّد يوم وسيمضي ثمّ يعود كل شيء بعده كما كان.

استغلّت سفر والدها إلى محافظة أخرى لتخرج في مثل هذا الوقت، ثمّ نزلت لتأخذ سيّارة أجرة، وإذ برجل ينتظرها أمام مدخل منزلها ويقول لها:

آنسة سيلا تفضّلي عالسيارة، للحظاتٍ خافت منه وسألته من أنت؟

ليجيب بلهجة لبنانيّة أشعرتها بصدقه نوعاً ما،

- أنا بعتني سيّد زياد كرمال وصّلك

في كلّ مرّة تصدمها تصرّفاته، كيف عرف أين تسكن؟!

عندما يقع الرجل الذي يملك كلّ شيء أمام امرأة صعبة، وآخر ما تفكّر به هو الرجال، فهو في مأزق.

لم يُخيَّل له يوماً بأنّه قد يلتقي بفتاة مثلها، يقف كالمشدوه أمامها، لا ينصت لأيّ صوت غيرها ولا حتّى لضجيج المارّة..

لا يضجّ بمسامعه سوى بحّة صوتها وكأنّها رنيناً يدوّي في أذنيه.

لم يكن يتخيّل أن يهرع لمقابلة امرأة يوماً.. دوماً كان يمضي من حياة النساء اللواتي عرفهن مسرعاً، دون أن يهمس لإحداهن بأنّه راحل حتّى..

بعد كلّ هذا التاريخ الحافل بالنساء المعذّبات، تكمن امرأة أعيَت رجولته، استباحت محرّماته، حتّى بات عاجزاً عن الثبات منذ التقى بها.

كانت سعيدة، وفي ذات الوقت، كانت تخشى ذاك اللقاء الذي سيعصف بها، والذي ستختلي فيه بأحلامها، وتنجرف وراء رجل مخيّلتها..

وصلت للمكان المنشود، وقف السائق أمام البوّابة وهرع

ليفتح لها الباب وكأنّها أميرة في حكاية قديمة، عيناها انتشرتا في المكان بحثاً عنه، لكنّها سيطرت على نفسها وأظهرت على وجهها ملامح رماديّة..

رافقها السائق للداخل، وأعطاها تذكرة كتب عليها رقم المقعد، ماذا الآن؟!!

ألن يأتي أيضا؟!

لا، لقد كتب أراكِ هناك، أي أنّه قادم..

جلست في المقعد تنتظر شيئاً لا تعلم ما هو، الموسيقيّون على وشك البدء، لكن أراحها المقعد الخالي بجانبها، بعد نصف ساعة رفع الستار وبدأت الفرقة بالعزف، ليصل زياد ويجلس جانبها..

دون الالتفات إليها قال:

- أحبّ اللون النيليّ

افترسها إحساس لم تستطع وصفه مطلقاً، تشنّج في المعدة ودقّات قلب سريعة.. بابتسامة تضجّ بها السعادة:

- وأنا أيضاً

ملتفتاً إليها:

- ألن تقولي الحمدللّه على السلامة؟

- الحمدللّه على السلامة

- كيف حالكِ؟؟

- بخير وأنت؟

- الآن أصبح بخير.

ثمّ التفت منصتاً للعرض الموسيقيّ، لكنّه كان ينتظر انتهاءه بفارغ الصبر كي ينفرد بها.

هو يستطيع اصطحابها لمطعم ليتحدّث إليها، لكنّه أراد جعلها تنتظر انتهاء العرض لتكلّمه، تنتظر انتهاء كلّ دقيقة لتطلب شرحاً مفصلاً عن كلّ ما يحدث.

بعد انتهاء العرض، باغتها بدعوتها للعشاء، لكنّها لم ترد إعطاءه فرصة للتحدّث طالما لم يتحدّث معها طوال العرض.

- أين سنأكل الآن؟

- أتمنّى. لكن تأخّر الوقت

- إنّها الحادية عشرة..

- نعم.. هذا متأخّر بالنسبة لي

مجّدداً يقتله برودها ويختلس منه يقينه بما سيحدث، ويتركه

غريباً على رصيف الذبول، لكنَّ ذلك البرود كان أكبر دافع للتعمّق بها..

- حسنا، دعيني أوصلكِ

استغنى عن السائق وطلب منها أن تدلّه على الطريق، علّه يسرق منها بعض العبارات التي تريح قلقه من عدم السيطرة على غرورها، لكنّه لم يكن على علم بالمسافة القريبة جدّاً بين منزلها ودار الأوبرا.

ساد صمت بينهما ثمّ افتتح حديثه سائلا: تشعرين بالراحة في دمشق صحيح؟

لتجيبه بـ نعم طبعاً، وترفقها سريعا بـ: إلى اليسار من هنا

- أخافُ أن تعجبكِ هذه الراحة، ولا تعودي

- بابتسامة تردّ: بالطبع سأعود يوماً ما لأبقى هنا، لكن ليس في الوقت الحالي، هنا منزلي لو سمحت.

- ألا يوجد طريق أبعد؟

- بضحكة بسيطة: تصبح على خير، وشكراً على هذه السهرة اللطيفة.

عندما وصل للفندق، ارتمى على السرير ملتحفاً تلك الضحكة التي ودّعته بها بين وسادته وكانت سيّدة أحلامه تلك الليلة، بات يكرّر اسمها قبل نومه ويتنشّق عطرها الذي ما زال عالقاً بيده.

أمّا هي فكادت تطير فرحاً، فهو الرجل الأوّل الذي يقطع مسافات ليراها.

ويكون راقيا لدرجة اختيار لقائها بدار الأوبرا، جلست على السرير تستعيد كلّ لحظة قضتها معه، ليقطع تأمّلها برسالة قال فيها: هل أزهرت الدنيا في عيني، وأيقظت كلّ أحلامي المبتورة؟ أم أنّي سعيد أكثر من اللازم؟!

ردَّت: ربّما اجتاحك ياسمين دمشق، فهو قادر على خلق السعادة بقلوب زائريه.

كلاهما لم ينم تلك الليلة، استمرّا في التفكير بالخطوة التالية التي سيتّخذها كلّ منهما تجاه الآخر.

يرسل لها في الساعة الواحدة ليلاً:

- هل لا زلتِ مستيقظة؟

أراد التأكّد من أنّه استطاع سرقة نومها وتفاصيل راحتها بعيداً عنه، لكنّها لم تكن بالسذاجة المطلوبة لتعطيه ما أراد.

في الصباح، لم ترسل له شيئاً أيضاً، بل اكتفت بشغل نفسها مع أصدقائها.

توقّع أن يستيقظ ويجد مكالمة أو رسالة منها، لكنّها أتقنت جيّداً تنفيذ مقولة لجبران خليل جبران:

"من يحبك من بعيد دعه كما هو.. بعيد

واترك بينه وبينك مسافة، إيّاك أن تقترب منه أو يقترب منك، ليس لأنّك ستصبح سيّئاً ولا لأنّه سيكرهك..

إنما لتحافظ على صورتك التي لا ترى بوضوح، إلّا من بعيد.."

لكنّها على يقين من أنّها ستجد من يحبّها، بشغف وإصرار وإفراط وعمق، وفي قرارة نفسها تتمنّاه هو بالطبع.

يقاطع جلستها مع أصدقائها باتصال كي يدعيها للغداء

- مرحباً، كيف حالك؟

- أهلاً،

- عفواً، هل انتِ مشغولة؟

- لا أبدا، تفضّل

- أتساءل هل يمكننا تناول الغداء معاً، إن كنتِ تملكين الوقت؟

قبولها لدعوة أخرى وفي اليوم التالي على الفور، كان صعباً جدّاً عليها، على الأخصّ أنّه لم يظهر أيّ فعل إيجابيّ أمامها، تلك الرسالة لا ترضي غرورها.

- أتمنّى ذلك، لكنّي ذاهبة لتناول الغداء مع أصدقائي

- اها، حسناً إذاً، أراكِ فيما بعد

في كلّ مرّة ترفضه فيها، تتوسّع دائرة اهتمامه بها، لكنّه الآن سيعود لقناعاته السابقة بالابتعاد، ليضمن بقاءها في حياته ففي اقترابه السريع منها،هلاك النهاية السريعة.

كلّما شعر بأنّها لا ترغب به، ابتعد عنها، لتنشغل في البحث عن مفتاح باب عودته.

على الرغم من أنّه أحبّ ذاك التمنّع الواضح فيها.

اشتياقه لليوم الذي ستكون فيه ملكاً له كان يأتيه كالموج، لكنّه اليوم على وشك الغرق.

شعرت أنّها قامت بتصرّف سخيف فهو قطع مسافة ليقابلها، فاتّصلت به لتطلب رؤيته بحجّة تعريفه على دمشق.

كان واثقا أنّها ستتّصل، لكن ليس بهذه السرعة، دوماً تصدمه بتصرّفاتها، فتظهر كلّ ما لم يتوقّعه.

- مرحباً

- أهلاً أهلاً

- أنا آسفة بشأن ماحدث صباحاً، لكن أصدقائي اجتمعوا، ومنهم من أخذ إجازة ليراني و لذا لم استطع مقابلتك، ما رأيك في رحلة إلى دمشق القديمة غداً؟؟

كان العرض مغرياً لدرجة كبيرة، لكنّه لن يستطيع القبول ولن يكون سهلاً، إنّما أراد امتلاكها ببطء شديد، للاحتفاظ بها أكبر وقت ممكن.

- أووه، آسف، أنا ذاهب للمطار بعد قليل، طائرتي إلى دبي ستقلع بعد ساعتين، لم يكن الوقت كافياً، لكن سررت برؤيتك.

إخماد النار لم يكن خياراً محبّذا لديه، أحبّ تركها تنطفئ على مهل

لتستنشق ما استطاعت من دخان غروره.

تابعت حديثها ببرود:

حسناً، رافقتك السلامة

أمست بداخلها حرباً، لكنها أظهرت له ما استطاعت من سلام.

طالت فترة الهدوء بينهما، وخلت من الاتّصالات والرسائل، كلاهما كان يتفقّد الهاتف من حين لآخر، لكن دون جدوى.

بعد إنهاء والدها عمله في دمشق، عادا لبيروت وعادت لاستئناف عملها في الشركة، أسبوع آخر.. لم يعُد بعد.

عدم تواصلها معه أشعره بأنّه منهك من البذل الزائد، لكنّه كان على يقين من أنّها تريده بشدّة، فالمرأة دوما ما ترسل للرجل إشارة بطريقة ما في بداية العلاقة تقول، يمكن أن تكون أنت الشخص الذي سيجعلني سعيدة. فكان على ثقة كاملة بنفسه، لأنّه إذا أراد فهو قادر على صنع تغييرات جذريّة في العلاقة، لكنّه بحاجة لإعطائه الفرصة كي يثبت إمكاناته.

كان ينوي العودة لبيروت، ينوي أن يعود قويّاً.

قويّاً بها..

عاد من السفر، وعاد إلى العمل وكأنّ شيئاً لم يكن، وكأنّه لم يسافر إلى دمشق ليراها وكأنّه لم يراسلها ليلاً، أرادها أن تشتاق لكلّ التفاصيل التي تكبَّرت على عيشها معه.

علمت بعودته، لكنّ عدم اتصاله بها، وتصرّفه بهذا القدر من اللامبالاة، لم يعطها الدافع للمبادرة بأيّ تصرّف يحمل معه الضوء الأخضر لبدء شيء، بينما كان يظنّ أنّه يعذّبها، لتسرع

طالبة منه احتواءها.

مرَّ يومان على وجوده في الشركة دون أن يلتفت أيّ منهما لمقابلة الآخر، حتّى ظنّ مؤخّراً أنّها لا تعلم بوجوده،

فاتّصل بأنطوان وقال له: ألم تخبر سيلا أن تبدأ بعقود الشركة الجديدة؟

ليفاجئه جواب أنطوان:

- بلى سيّد زياد أخبرتها بما طلبت وهي على وشك الانتهاء.

الآن لم يعد يملك الصبر، كلّ البرود الذي تعامل به يوماً مع النساء، أصبح معها ماضٍ غير قابل للعودة.

أرسل لها على هاتفها:

- تعالي لمكتبي

دون مكابرة ذهبت إليه، دخلت بابتسامة بسيطة لا تحمل أيّ ملامح

اشتياق او اهتمام.

- نعم سيّد زياد؟

ظلّ جالساً وينظر إليها باستغراب، شابكاً يديه ببعضهما على مكتبه ولم يتفوّه بكلمة،

- ماذا بك، لم لا تجيب؟

- مساء اليوم سأمرّ لأخذك من المنزل عند الساعة السابعة

أريد التحدث معك، بدون أي عذر.

أيضا بدون أيّ اعتراض أو أيّ فرح، هزَّت رأسها وقالت حسناً.

الآن أيقن أنّه أحبّها، هارباً من بشاعة ماضيه الأنثوي الجامح ومن زوابعه الداخليّة، ومن كلّ حزن عصف به قبل لقائها، أيقن أنّه يريدها لينجو من ثقل الكون عليه، وليمسك بها كلحن يسمعه ليرى الكون جميلاً.

تأكّد أنّه منذ عرفها وهو كوكب يشع ويتوهج كلّ ما رآها وكأنّها الشمس التي يستمد منها نوره.

مساءً، حاولت جاهدة أن تجعل أمسيته هذه غير قابلة للنسيان بكلّ تفاصيلها.

ارتدت ثوباً أسود لركبتها ورفعت شعرها بطريقة بسيطة، ثمّ وضعت مكياجاً خفيفاً وأحمر شفاه فاقعاً بعض الشيء.

وأخبرت والديها أنّها ذاهبة لعيد ميلاد صديقتها.

اتّصل بها ليخبرها أنه ينتظرها أسفل المنزل، ثمّ نزلت

وصعدت في السيارة.

- مساء الخير

- مساء النور، كيف حالكِ؟

- بخير وأنت؟

- الآن أصبحت بخير.

هو أيضا أراد حفر تلك الليلة بذاكرتها، اهتم بكلّ التفاصيل التي تثير عاطفتها، وصلا لمطعم على قمّة جبل يطلّ على مدينة بيروت، كان المنظر ساحراً، وكان إحساسه بها عالياً تلك الليلة.

طلب من النادل وضع معزوفات رومانسيّة هادئة كان قد اختارها عندما حجز الطاولة.

وافتتح حديثه معها قائلاً:

- لم انتبه عندما صعدتِ للسيارة، أنّكِ على هذا القدر من الجمال الليلة، لا شك أنّ الجمال على قدر منكِ اليوم

- ردَّت بابتسامة مصحوبة ببعض الخجل:

- شكراً، وأنت اليوم على قدر كبير من الإحساس.

- من أنتِ؟ وجدت فيكِ كلّ ما تاه منّي يوماً لكنّي ضعت بتفاصيلك الصغيرة قبل الكبيرة.

لم تتوقّع أن يكون بهذه الجرأة ليتحدّث معها مباشرة بموضوع كهذا، لم تكن تملك أجوبة ولم تحضّر نفسها أصلا لذلك.

استحضرت أمامها صورة زوجته، ليقف أمامها حائط يمنعها من الاقتراب أكثر، لكن سرعان ما هَدَّ الحائط عندما استغل شرودها ليقول لها وهو يحاول إمساك يدها، كوني لي..

لم تعِ ما يحدث، ولم تكن تملك أيّ قدرة على الردّ، تارة يغمرها شيء من الفرح، وتارة أخرى تراه كاذباً.

لكنّها تريده بشدّة، ترغب به بكلّ أحاسيسها.

تلك الليلة، لم تستطع سيلا الردّ عليه، اكتفت بتغيير الموضوع وطلبها للعودة للمنزل بعد العشاء.

لم تنم، ظلّت تفكّر بكلّ ما قال، تستحضر اللحظات التي عاشتها لأوّل مرّة مع رجل كهذا، لم تقاوم، وربّما لن تقاوم..

فذاك الذي كان صعب المنال يوما، يغدو كطفل يتوسّد ذراعيها طالباً الحبّ، من استطاع أن يغزو وجدانها، جاء اليوم مستسلماً، لم تكن يوما تذوب طرباً بكلمات الرجال الساحرة، فقط أمام هامته، نسيت كلّ القواعد الصارمة وقرعت طبول قلبها محتفلة بقدومه.

تلك الفترة التي بات فيها كل شيء في حياتها مميّزاً، لا تعلم ماذا يكون لها، لكنّه شيء جميل يربكها حضوره.

****

هو على مشارف كلمة واحدة، لكنّه سيطيل فترة الارتباك والحالة التي تغيّر كلّ شيء بمجرّد اتّصال، سيمهّد ليكون لفظها حدثاً لغويّاً عظيماً طال انتظاره.

****

تغييرات جذريّة حدثت بسبب تلك الليلة، فكلّ صباحاتها بعدها كانت بمزاج جميل، تذيب الفرحة بفنجان قهوة وتقيم مع النهار علاقة جميلة تفكّ فيها أزرار قميصها لرياح الصدف.

كانت مستعدّة للجلوس طويلاً على كرسيّ الانتظار، لكن انتظار ماذا؟

مستقبلها معه مجهول، وتخاف انفراط مسبحة الصبر بعد الجلوس الطويل، كانت تصبّر نفسها بلهفة القبلة الأولى.

مرّ وقت على تلك الليلة، وكان ما بينهما يكبر يوماً بعد يوم

حتّى لاحظت سكريتيرة زياد "نغم" الاهتمام الزائد بسيلا، وأشعلت بداخلها نار الغيرة على رجل تمنّته طوال سنين عملها معه، لكنّه لم يعطها سوى بعض كلمات المجاملة.

غيرة نغم دفعتها للحقد على سيلا ومحاولة إبعادها عن زياد بأيّ طريقة.

فاتّصلت بزوجته والتي تربطها بها معرفة بحكم عملها مع زوجها، وطلبت مقابلتها للتحدّث معها.

أحد الموظفين كان قد أخبر سيلا أنّ نغم تحوك لها مشكلة مع زوجة زياد، دون إخبارها كيف علم بذلك.

عند اللقاء فاتحتها بموضوع ملاحظتها لاهتمام زياد الكبير

بسيلا، ليسبّب ذلك مشاكل كبيرة بين زياد وزوجته، ويقرّر من بعدها السفر لأسبوع دون إخبار أحد.

سافر إلى مصر بهدف تأسيس فرع جديد للشركة وأخذ نقاهة والتفكير مليّاً، بجديّة ما يفعل.

يصدمه ذاك التطور السريع والتغيير الجذري لطريقة تفكيره، مذ عرفها وهو يتوق لوصالها، لامتلاكها، لتكوين أيّام تعيشها له فقط.

حين وصل لمصر، اتّصل بسكرتيرته وأخبرها أنه سافر لمصر،

لكنّه لم يخبر سيلا، أراد أن يستغلّ سفره مجدّداً ليشغلها بالتفكير به، وبسبب ابتعاده المفاجئ، دون أن يخبرها.

كان يستلذّ بكل لحظة يشعر بها أنّه يغزو تفكيرها.

معظم الرجال الشرقيّين هكذا، يستمتعون بصنع أبطال بداخلهم، ليهزموا العجز الذي صنعته بهم امرأة مستبدّة ضدّ الرجولة الكاذبة يوماً ما، ليستطيعوا ملء النقص الذي صار جزءاً من عادات معطوبة بالية، ويكملوا حياتهم بالخيالات الزائفة لتعويض فشلهم في نسيان امرأة يهابها الجبناء منهم.

مجدّداً يتركها دون إخبارها ويبتعد، وفي كلّ ابتعاد له، تقترب

منه ويزرع فيها بذور اشتياق لتثمر عناقاً عند رؤيته.

اسبوعين، لا يتّصل بها ولا يردّ على مكالماتها.

أتعبها بتصرّفاته غير المفهومة، يوماً تراه بداية حياة جميلة، ويوماً ترى به نهاية سريعة لتلك الحياة.

كعادته يباغت تعب انتظارها برسالة تحيي فيها ما أتلفه الغياب:

- آسف، لم استطع إخبارك بسفري، اضطررت لذلك وانشغلت كثيراً منذ وصلت، سأعود غداً ويجب أن نتحدّث بموضوع مهم.

***

يجيد صنع الشغف، ويجيد العزف ويتوق لأن ترقص أمامه يوماً، لن يدع موضوع زوجته أن يكون عائقاً أمام امتلاكها، فهي تشبهه إلى حدّ ما..

لا تستهويها الكثرة، ولا تميل إلى المتاح، ذاك القليل يهمها والمزيد منه له معنى كبير بالنسبة لها.

يتّصل بها حين وصوله للمطار:

- مرحباً، انتظريني في المكان الذي التقينا به أوّل مرّة.

- حسناً

كانت تنتظره في المطعم، وتفكّر بالكلام الذي ستجاوبه به لظنّها أنّه سيطلب منها إنهاء ما بدآ به.

تقول بينها وبين نفسها:

- ما الذي سيبدأ به؟، تستحقّين الأفضل يا سيلا؟!

كباقي الرجال إذا ما أرادوا الانسحاب.

لكن لِمَ لا يكون الأفضل لأجلي، لن أطلب منه الارتباط..

لا لا، سيعتقد أنّني أهيم به، حسناً، هكذا النصيب، لا ما ذنب النصيب إذا كان هو اختياراً خاطئاً.

أنا سأبدأ بالحديث، وسأقدّم الاستقالة، وأطلب منه الابتعاد.

بقيت شاردة الذهن ومشغولة بتخمين ما سيحدث، إلى أن انتبهت إليه واقفاً واضعاً يده في جيبه، ثمّ قال لها:

- هل انتهيتِ؟

- ممّ؟

- من التفكير الزائد

- نعم، مشاكل في المعهد، ستحلّ قريباً، كيف حالك؟

- بخير وأنتِ؟

- هل اشتقتِ إليّ؟ (وهو يبتسم رافعاً حاجبيه)

- ولمَ أشتاق لك؟

- لا بدّ أنّكِ غاضبة منّي، لكنّي أعرف جيّداً أنّكِ اشتقتِ لي، وكثيراً.

ابتسمت وسألته عن سبب هذا اللقاء.

- لمَ طلبتَ أن تلتقي بي اليوم؟

- اشتقت إليكِ؟ غير مسموح؟

- بلى، مسموح

-أريد اخبارك بشيء.. نعم أخبرت زوجتي عن علاقتنا، وعند عودتي للمنزل، حصل خلاف بسيط بيني وبينها منذ أسبوع، لكن لا بأس.

قاطعته مستغربة:

- علاقتنا؟؟؟!!

- نعم سيلا. كفى مكابرة، الجميع يلاحظ اهتمامي بكِ، كفى مراوغة.. تعلمين هذا جيّداً، وأعلم أنّك تبادلينني الشعور ذاته، لكنّك مكابرة ومغرورة.

لم تستطع إخفاء سعادتها، ابتسمت قائلة له:

- أنا؟!!!

- ما رأيك أن نمشي قليلاً سيلا، الطقس رائع

- حسناً

سرعان ما نسيت فكرة الاستقالة والابتعاد، هكذا هي حوّاء

في أغلب الأحيان، لا تعرف كيف تخفي ما تشعر به، حتّى و إن نجحت في ذلك، سرعان ما سيكشفها ارتباك ما ليظهر العكس، فكلماتها قد تكذب، لكنّ التصرفات دائماً تقول الحقيقة.

خرجا ليمشيا قليلاً بمحاذاة البحر، نظر إليها مبتسماً:

- محتالة أنتِ

- أنا! لمَ؟

- ستعلمين في الوقت الصحيح.

- أعلم ماذا؟ أخبرني الآن أرجوك

ابتسم ونظر إليها وكأنّه قال لها أحبّك ألف مرّة وبألف نبرة، بألف خفقةٍ، بألف عطر، بألف قُبلة.. دون أن يتكلّم.

عيناها احتضنتاه بشغف طفلة وكأنّها صرخت بملء حنينها،

كُن لي. وكأنّ الزمان توقّف هنا، الآن تحقّق ما تمنّاه وارتجاه يوماً في تلك اللحظة، كان روحاً يقاسمها الحياة، كان ضوء عينيها والوطن الذي لا يخذلها.

بات كلّ شيء واضحاً، لم يعد هناك مجال للمكابرة،لكنّه لاحظ قلقها عندما حاولت إخفاءه بالتبسم.

أمسك يدها قائلاً:

- لا تقلقي، أنا بطبعي رجلٌ يوصد أبواب قلبه بوجه كلّ طارق، لكن حينما أتشبّثُ بهذه اليد.. يعني أنّي آمنتُ بكِ حدَّ التلاشي.

كعادتها، تلعثمت واكتفت بضحكة مرفقة بـِلقد تأخّر الوقت.

عند عودتها للمنزل، دخلت غرفتها وارتمت على السرير وهي تكاد تبكي من الفرح، فمازالت تسمع صوته..

بات لها.. ذاك الرجل الذي كلّما التقت به بعثرها، زلزلها، بدّدها وانتشلها من خارطة الكون ليسلبها عقلها وقلبها.

اتّصلت بغريس وأخبرتها عن كلّ ما حدث:

- ما رأيكِ؟

- لا أدري سيلا، أتمنّى أن تكوني سعيدة مع رجل ما، لكن..

إلى متى؟؟ في النهاية سيعود لزوجته وبيته وأنتِ ستبقين وحدك

ردّت:

– أريد أن أعيش معه أيّاماً جميلة، لا أريد أن أتزوّجه، ولن أملّ من حياة هو بها، لا تقلقي.

– هل جننتِ؟ تريّثي، ولا تقحمي نفسكِ بمشاكل أنتِ بغنى عنها، ألم تفكّري ما الذي سيحدث في حال علمت زوجته، فكّري بعقلانيّة سيلا.

كلّ ما قالته غريس لها لم يعنِها بتاتاً، الآن هي امرأة عاشقة بغضّ النظر عن الظروف المحيطة..

كانت ترغب بالبوح له بكلّ شيء، خافت ألّا يأتي اليوم الذي تجرؤ فيه على قول أحبّك، لتبقى الكلمة كامنة بصدرها تتمتم بها بين وسائدها، دون أن يصله ذلك الشغف المجنون.

****

لا تكوني بخيلة عليه بدعوة قلبه لوليمة حبّ راقية..

وأجرك عند اللّه كبير لإحسانك إلى فقير، فالرجال فقراء إن خلت قلوبهم

****

يتّصل بها صباح اليوم التالي ليذهبا للافطار سويّاً، ثمّ الاتّجاه للشركة.

كانت ترى به كلّ شيء جميل، وهو يتعامل معها كرجل عقيم منحه الله معجزة ورزقه بفتاة، كان يرغب بمنحها كلّ شيء، وقته وسعادته وراحته..

عندها.. يرفع رايات الاستسلام أمام سطوة العشق، ويعلن الخسارة المطلقة أمام ثورة الهوى.. وفقدان القدرة على المبارزة في حرب صارمة تقودها عيناها.

كلّ يوم كان يرى فيها شيئاً جديداً ليحبّها أكثر.

مرَّت شهور لم يذق فيها طعم الملل أو الحزن أو التعب معها.

ذكرت أمامه مرّة عندما كانا يحضران فيلماً، أنّها تحبّ المفاجآت الغريبة، كتلك التي رأتها في الفيلم، حين كان البطل يأخذ حبيبته لإيطاليا كنوع من الترفيه.

شيء كهذا كان بالنسبة لها شيء رائع، لكن بالنسبة له كان موضوعاً اعتيادياً، رجل قضى نصف عمره في الطائرات متنقّلاً بين البلدان.

لم ينته الفيلم إلّا وكان زياد، قد حاك المفاجأة مع تفاصيل عيشها كاملة .

يتّفق مع صديقه المقرّب.. وهو مدير العلاقات العامّة في شركة زياد، على سيناريو معيّن يمثّلانه أمام سيلا، فيطلبها لمكتبه للتحدّث قليلاً ثمّ يقاطعه صديقه، ويقتحم الجلسة بحجّة أمر طارئ يدعو للسفر إلى روما لتفقّد حال أمور مع شركائهم هناك.

ويطلب من زياد وسيلا السفر معه،كونها المحاسبة وهو المدير العامّ:

- لكن أنا لا أستطيع السفر، من المستحيل أن يقبل والدي

يقاطعها صديقه:

- سيلا أرجوكِ الأمر ضروريّ جدّاً، وفيه خسارة كبيرة للشركة.

- لا أدري، سأحاول لكن لن أعدكم بشيء.

يسألها زياد:

- هل يتوجب علي التحدث مع والدكِ؟

- لا أعلم، ربّما

- سأحاول إذاً، أعطني رقم هاتفه.

يتّصل بوالدها ويخبره بأنّ شريكه في روما ينتحل شخصيّته

ويبيع الشركة، وهو بحاجة ماسّة لسفر سيلا مع طاقم العمل لمدّة يومين.

يرفض والدها في البداية لكن سرعان ما يقبل بعد معرفته بسفر طاقم كامل.

يغلق الهاتف ثمّ يوجّه حديثه لصديقه:

- حسناً إذاً، عند التاسعة تمرّ لأخذ سيلا إلى المطار لنلتقي هناك مع الجميع.

- حسناً سيّد زياد

- وأنتِ سيلا، اذهبي للمنزل الآن وحضّري نفسك.

❋❋❋❋

هو.. أتعس حلم جميل ثملت الحياة فيه..
هو الحظّ العاثر الذي تعثر بها واختلس سعادتها البكر
ثمّ مضى عائداً لمن أكمل نصف دينه معها..

❋❋❋❋

يتّصل بها صديقه ويخبرها أنه ينتظرها بالأسفل، لتنزل وتصعد السيّارة، وتجد زياداً أمامها..

باستغراب:

- مرحباً

- أهلاً وسهلاً آنستي

- أين هو؟ اتّصل بي لأنزل و..

قاطعها مجيباً:

- حصل مشكلة مع أحد الموظّفين ولن يسافر ذهب ليجد أحداً آخر.

- اممم، أشعر بشيء ما يحصل

- جيّد، هل تشعرين بدقّات قلبي؟

- اممم، لا.. أشعر بالجوع

- كم أنتِ رومانسيّة عزيزتي..

يصلا للمطار ويتّجهان لختم جوازات السفر، لكنّها تتفاجأ من عدم وجود أحد من الموظفين، وتبدأ الشكوك تنتابها حول ما يجري..

- زياد، أين الموظّفون؟؟ لا أرى أحداً..

– سيلحقون بنا في الطائرة التالية بسبب الموظّف الذي اعتذر عن الذهاب قبل قليل.

كان جدّياً في ما يقول، حتّى أنّها صدّقت ما قال بسهولة.

ينتابها إحساس غريب، شيء من الخوف الجميل، هي على متن طائرة، وبجانبها الرجل الذي تحبّ.. وترى الكون جزءاً منه والعكس غير صحيح.

هنا.. اختار هو قيادة الأمور، رسم خريطة الطريق للاستحواذ عليها.

عند وصولهم لمطار روما، اختارت أن تعيش لحظات رسمتها بمخيّلتها، تتخيّل سفرها معه وحدهما، بعيداً عن العمل، فبات المطار أوّل قِبلةٍ للحبّ..

خرجا من المطار متوجّهين إلى السيّارة التي تنتظرهما خارجاً.

إلى الآن لم تكن تعي ما يجري، لكنّها تشعر بشيء من الاستقلاليّة معه.

وصلا للفندق، كان قد حجز لها جناحاً بجانب غرفته، دخلت للجناح وصدمت بالورود والشموع التي كتبت اسمها..

ثمّ التفتت للوحة مغطّاة بقماش أبيض، رُسمت هي بها،

سارعت للهاتف واتّصلت بغريس:

- غريس، ألو، وصلت الآن إلى الفندق، لكن زياد..

تقاطعها:

- هل اقترب منكِ؟

- مابكِ غريس، لا هو في غرفة مجاورة، لكنّ جناحي مزيّن بالورورد والشموع التي كتب اسمي بها، كما اني وجدتُ لوحة رُسمت بها.

- سيلا.. هل أنتِ متأكّدة أنّكِ ذهبت مع طاقم الشركة؟؟!!

- نعم غريس، سأغلق الآن أحدهم يطرق الباب،

- سيلا انتظري...

تغلق الهاتف وتركض للباب، ربما كان هو..

تفتح الباب، موظّف الفندق.. يعطيها علبةً بيضاء كبيرة.

تأخذها باستغراب، ثمّ تفتحها وإذ بها فستان أسود قصير وحذاء أحمر.

يتّصل بها:

- هل أعجبك؟

باستغراب تجيب:

- رائع، لكن ما المناسبة؟

- ارتديه وانزلي، انتظرك في البهو.. لا تتأخّري.

إعصاره اجتاح قلبها، ورماه في قاع محيطه لتغرق به. إحساس ما زلزل كيانها.. تعيش لأوّل مرّة تجربة كهذه، رجل يفعل كلّ شيء في سبيل سعادتها..

لكنّها لا تعي أنّه يفعل ما يفعل، ليستطيع التحكّم بها فيما بعد.. وليضحك أخيراً وتبكي هي ليالي من بعده.

رجل كهذا يفعل المستحيل في سبيل أن تهيم به امرأة رمقته بلامبالاة يوماً.. ليثبت رجولته، وكأنّ الرجولة لا تكتمل إلّا بامتلاك النساء.

ارتدته ونزلت لتلقاه، كان واقفاً أمام باب الخروج ينتظرها، واضعاً يده في جيبه هذا اليوم كان في السابق حلماً لها، لحظة لقاء تذيب ثلوج الحواجز بينهما.

حتّى وإن لم يكتمل حلمها بالارتباط به.. فهي مستعدّة لتحرق عمراً من الدقائق معه.

- مرحباً

- كم أنتِ جميلة..

- شكراً، أنت أيضا تبدو جميلاً، إلى أين سنذهب زياد؟

- اممم، ستعلمين حين نصل

في الطريق سألته:

- زياد، هل وصل باقي الموظفين

- لا

- لماذا؟؟؟

- لقد حُلَّ الموضوع

- متى؟؟

- قبل وصولنا

- محتال أنت. ربّما هم في بيروت الآن ولا يعلمون شيئاً عن الموضوع.

وصلا لمكان غريب بعض الشيء، يشبه المطعم، لكنّه في قصر قديم فيه حديقة ضخمة.. تتوسّطها متاهة من جدران زيّنتها الورود بكثافة.

سألته:

- ما هذا المكان؟

- ألم يعجبك؟

- بلى، إنّه شيء من الخيال ورائع جدّاً، لكن كيف تعرف مكاناً كهذا؟

- شاهدته يوماً في التلفاز.. فقرّرت زيارته في الوقت المناسب

- وهل هذا هو الوقت المناسب؟

- لا أعرف إذا كان التوقيت مناسباً، لكنّي على يقين أنّي مع الشخص المناسب.. أريد أن نلعب لعبة

- نلعب؟!!

- نعم سيلا، ادخلي في هذه المتاهة، واتبعي صوت الموسيقا..

لتجديني أنتظرك في آخرها، يجب أن يدلّك قلبك على الطريق إليّ.

باستغراب شديد:

- زياد.. مابِك؟!، هل جئنا لنلعب؟؟

- أرجوكِ.. دعي حدسك يوصلك إليّ

تتنهّد ثمّ تقبل على مضض.. وتدخل في المتاهة.

عند دخولها، بدأت تسمع صوت عزف جميل..

تابعت سيرها، فصادفت فتاةً تعزف على الكمان وأمامها باقة ورود، تبتسم وتعطيها إيّاها ثمّ تذهب..

لم تستطع تصديق ما يحدث، ضرب من الجنون ما ترى، أم أنّها تهذي وتحلم في عالم خياليّ يجمعها به؟؟

تتابع سيرها لتصادف شابّاً أيضاً يعزف على الكمان وأمامه باقة مثيلة، تبتسم هي له وتأخذها ثمّ تتابع سيرها.

استعان بالأساطير ليعيّشها بها، أن يحقق لها ما تحلم به الفتيات.

أراد أن يعيش معها رحلة كألف ليلة وليلة.

الكثير من الأشياء الغريبة والمثيرة التي تحدث معها في ليلة واحدة.

باتت على ثقة تامّةٍ أنّه سيعترف لها الليلة، وينتهي عصر التلميح.

تابعت سيرها حتّى وصلت إليه.. كان ينتظرها واقفاً بجانب طاولة..

تحيطها أشجار الساكورا.. ثمّ جلس بعيداً عنهما الشاب والفتاة وبدآ بالعزف..

أزاح لها الكرسيّ:

- تفضّلي

- لِمَ كلّ هذا؟؟

- كلّ هذا؟؟ هذا لا شيء

- لا شيء!!

يفتح زجاجة النبيذ ويضع القليل في كأسه ليتذوّقه، ثمّ يعطيها كأسها ويقول بعد تنهّد:

عندما أستيقظ وتكونين أولّ ما أفكّر به، وتحتلّين اليقظة وترافقيني لأقصى أحلامي وتكونين الأنثى الوحيدة التي رأيت فيها الفصول الأربعة للحبّ.. حينها لن يليق بكِ كلّ هذا..

تضع يدها على خدّها وتسأله:

- كيف أتيت إلى عالمي؟

- بإصراري على الوصول للقمّة

يحاول تغيير الموضوع كي لا يدخل معها في متاهة أنثويّة ملغومة لا آخر لها..

ماذا تحبّين أن تأكلي؟

تأخذ قائمة الطعام لتخفي ارتباكها قليلاً، ثمّ تختار طبقاً.

تنتهي سهرة الأحلام تلك، ويوصلها لجناحها قائلاً لها وهو على مقربة كبيرة منها:

– سابقاً كنتِ ضيفة حلمي، لكنّكِ اليوم ضيفة حلمي وواقعي معاً..

ردّت:

سأجهّز نفسي لضيافتك إذاً.. تصبح على خير

كان بمقدورها أن تدعوه ليعيش حلمه على سرير واقعها، لكنّ أحلامها البكر أبت أن تسلِم زمام الأمور لرجل.

في صباحها الثاني من سلسلة الخيال التي تعيشها أيقظها عامل الفندق وهو يطرق الباب ليدخل لها الفطور، تفتح له ثمّ تعود للنوم، لكن يلفتها ظرف أبيض بجانب الفطور كتب فيه:

يقال بأنّ البندقية هي مدينة السحر والأساطير، هلّا شاركتني عيش أسطورتي؟؟

أنتظركِ في الأسفل.

ظلّت جالسة تتساءل بعد كلّ هذا، أين يجب أن تضع هذا

الرجل اليوم..؟

أفي خانة الأشياء العاديّة التي قد نصادفها كلّ يوم.. كزلّة قدم أو نوبة جنون..!

أم.. تضعه حيث بدأ يوماً؟

شيء خرافيّ، هديّة من كوكب آخر، لم يتوقّعه يوماً علماء الفلك، أو زلزال لم يتنبّأ به أيّ جهاز للزلازل..

هل أتاها هذا الرجل زلّة قدر.. أم زلّة قلب.

ارتدت شيئاً بسيطاً، بنطال جينز مع قميص من الشيفون وباليرينا وجزدان صغير على كتفها..

نزلت وقابلته مبتسمة:

- صباح الخير

- ما هذا الجمال

ضحكت قائلةً:

- شكراً، إلى أين اليوم؟

ردّ مبتسماً ورافعاً حاجبيه:

- إلى حيث يأخذنا الهوى.. تفضّلي آنستي

وصلا لمدينة البندقيّة، واستقلّا أحد القوارب ليوصلهما لمطعم يطلّ على قصر دوكالي.

- سيلا.. هل تودّين شرب شيء معيّن مع الطعام؟

- نعم، أفضل النبيذ الأبيض مع المأكولات البحريّة، سمعت أنّها لذيذة جدّاً هنا.

- كنتِ تحبّين زيارة إيطاليا صحيح؟

ردّت بمكر:

- نعم، لم تخطئ تخطيطاتك

أجابها ضاحكاً:

- المهم أنّ أراكِ بهذا القدر من السعادة،

حتّى أنّي اخترت هذه المدينة ليس لأنّها جميلة فحسب، بل لأنّها أشبه بمتعة روحيّة ممزوجة بالعشق الوجوديّ..

هنا يمتزج الماء مع النار والبشر مع الحجر.

ويقال بأنّها قِبلة العشّاق وأفضل مكان لعيش شهر العسل.

ردّت ضاحكة: هل سنقضي يومنا في العسل إذاً؟

أجاب:

- نعم.. لكن عليّ الحذر من لدغة الملكة.

كانت تخفي بداخلها أنّ سعادتها ليست بسبب زيارتها للبندقيّة فقط، بل لأنّها معه.. وحدهما

لكنّ تحفّظه على البوح لها بكلمة تمنّتها، لن ترقّعها أيّ من جمله المنمّقة التي سبق وقالها لها.. ومن ناحية أخرى، كان يعجبها الوضع هكذا، لا يوجد اعتراف مباشر، لكن بينهما كلّ شيء يدلّ على الحبّ.

بعد الانتهاء، أخذها للتجوّل في المدينة، فقصدا كنيسة سان ماركو

وقصر دوكالي..

عند مرورهما من جسر"Rialto Bridge" مشى خلفها قائلاً:

هل تعلمين أنّ هذا الجسر سمّي بجسر اللاعودة، كان كلّ الذين يمرّون عليه.. هم من المحكومين بالإعدام في طريقهم لمكان تنفيذ الحكم.

التفتت إليه وردّت:

- وهل هذا يعني أنّنا من اليوم بتنا محكومين بالإعدام؟

– ربّما أكون أنا محكوماً،لكنّي لم أكمل لكِ بأن السيّاف يمرُّ من هنا أيضاً.

تابعت سيرها بعد ابتسامة مكر صدّرتها له، لكنّه يعلم جيّداً بأنّ مكرها كصناعاتنا الوطنيّة، المادّة الأساسيّة لا تدخل في الصناعة.

انتهت رحلتها الخرافيّة، عادا للفندق وبدأت بتوضيب حقيبتها الصغيرة، التي خبّأت بداخلها أكبر قدر من السعادة.

قبل ساعتين من السفر، طرق باب جناحها.. فتحت له ودخلت فوراً، أفسحت له مجال اختراق حدود شرقيتها، دخل متأكّداً من أنّها ترغب بأن يقترب منها أكثر.. للحدّ المقبول.

لكنه على يقين من أن ما تريده منه، هو الاعتراف الأوّل،

ولن يستطيع البوح، لأنّه يعرف أنّ بعد الاعتراف الأوّل لن تعود كلمة "أحبّكِ" تعني شيئاً.. كان يفضّل أن يغريها أكثر من مرّة قبل ذلك.

اقترب منها واحتضن انتظارها قائلاً:

– أخاف ألّا أجد مظلة تقيني من زخّات الرغبة، أو كمّامة تصدّ رائحة عطركِ المثير.

عدم بوحه أجبرها على التمنّع عنه.. فهي لا تؤمن بحبّ

رجل يتسلّى من خلف ستار.

قالت بمزاج غائب:

- أنا جاهزة.. هل نذهب للمطار؟

تنهّد أمامها مطيلاً النظر إليها، ثمّ مشى وقال انتظرك في السيّارة

أغضبها عدم اكتراثه بانزعاجها، لحقت به وجلست بجانبه في السيّارة، لم تتحدّث معه مطلقاً، إلى أن وصلا للمطار وأنهيا إجراءات السفر وصعدا للطائرة، حينها لم يتمالك فكرة أن تنتهي الرحلة بمشكلة، اقترب منها وهي تنظر من شبّاك الطائرة وقال:

- لا أريدك أن تنفجري، لكن إن حدث وغضبتِ بقوّة..

حبّذا أن تنثري حبّاً، حاولت إخفاء ابتسامتها وردّت:

- لست غاضبة

أمسك يدها ووضع رأسه على كتفها قائلاً:

- أيقظيني عندما نصل وينتهي الحلم.

بقي نائماً على كتفها طوال الرحلة، حينها أيقنت بأنّها لن تخلق من ضلع الرجل الذي تحبّ، بل هو سيأتي من رحمها.

أيقظته عند وصولهما لبيروت، وبدآ بالنزول، كان ينتظرهما صديقه في السيّارة خارج المطار.. أعطى زياد مفتاح سيّارته وذهب..

أوصل سيلا لمنزلها وقبل أن تنزل قال لها:

- أتمنّى أن تكوني قد استمتعتِ، على أمل أن ينتحل شخصيّتي أحد شركائي في باريس قريباً.

ردّت ضاحكة:

- استمتعت كثيراً، شكراً لك زياد..

****

هكذا هم.. يأتون، وبصمت يرحلون
ثمّ كأنّ شيئاً لم يحدث، يقرّرون العودة متى أرادوا..
هنا نكون على ثقة تامّة بأنّ
بعض الذكورة عارُ..

****

لم تكن تخفي عنه سعادتها بوجودها معه في الشركة، تراه بين الحين والآخر، يذهبان للغداء أو الفطور معاً، باتت تفاصيل يومها مرتبطة به بعد تلك الرحلة..

يوم أخبرت غريس ما حصل في إيطاليا، قالت لها أن تتوخّى الحذر من رجل يعطي بلا مقابل، فكلّ سعادة يعطيها.. سيستردّها وجعاً.

عاد لمنزله كأي يوم عاديّ، لكنّ ما كان ينتظره..

هو شيء لم يكن في حسبانه من قبل، كانت تنتظره زوجته وفي وجهها ملامح غضب لا توصف.

حاول عدم الاكتراث كثيراً وسألها ماذا هناك؟

أجابته:

- منذ متى والمدير يسافر مع المحاسبة في رحلة ترفيهية وحدهما؟؟!!

أجاب مندهشاً، ومحاولاً إخفاء ما استطاع من حيرة:

- وما المشكلة إذا كان يفضّل السفر مع محاسبة ودودة على السفر مع زوجة لا تملك من مفاتيح الحياة سوى مفتاح باب النكد.

– هكذا إذاً؟ ما الذي حصل بينكما؟ ومنذ متى وأنت على علاقة بها؟

– علاقة ماذا؟ إنّها مجرد فتاة تصغرني بأعوام كثيرة وصديقة لا أكثر.

دام الشجار لساعة لم يصلا بعده لنتيجة.. سوى أن هدّدها بعدم الاقتراب من سيلا أو أذيّتها وإلّا ستحاسب بشدّة. وعلم أيضا أن من أخبر زوجته هي سكريتيرته نغم، فهي على علاقة بصديقه المقرّب، الذي يخبرها كلّ تفاصيل زياد دون وعي، ناسياً علاقتها بزوجته.

لم يهمّه موضوع زوجته.. فهو اعتاد أن تكون على دراية بعلاقاته النسائيّة.. لكن ما كان يهمّه.. هو ألّا تؤذيها.

ثمّ مضى قائلاً لها سأسافر إلى مصر في عمل لي وسأغيب لمدّة.

ذهب هارباً من ضجيج مشاكل النساء، وقيود الغيرة.

مجدّداً دون إخبار سيلا.. ربّما للمرّة الأخيرة

وصل لمصر واتّصل بصديقه وطلب منه تسيير امور الشركة بدون إخبار أحد عن مكانه.

حاولت الاتّصال به بعد مرور يومين على سفره، خشية من

أن يكون قد أصابه مكروه ما..

لكنّ هاتفه كان مغلقاً، انتظرت ليومين آخرين.. أيضاً دون جدوى.. حينها سألت صديقه عن مكان زياد وسبب اختفائه، فأجابها بأنّه بخير حتما لكنّه سافر في عمل إلى إحدى الدول.

لم تجد سبباً يبرّر سفره بهذه الطريقة، ولم تعلم ما الدافع وراء عدم الاتّصال بها لأربعةِ أيّام.

ربّما كالمرّة السابقة، حين حصل خلاف بينه وبين زوجته، ابتعد قليلاً ثمّ عاد ليكلّمها.

قرّرت الانتظار لبضعة أيّام أخرى علّه يتّصل ويشرح لها ما حصل.

كانت تنتظر اتّصاله كلّ يوم، كلّ ساعة، كلّ دقيقة.

تتفقّد هاتفها بين الحين والآخر، وتتأكّد إذا ما كان الإرسال جيداً.

تخبر غريس بما يحصل، فتخيفها بكلمة "حذّرتكِ" من رجل يعطي دون مقابل.

تخبرها غريس:

– آه، نسيت أن أخبرك، لقد سألني وسام إذا ما كنتِ تستطيعين

تعليم أخته الصغيرة العزف على البيانو.

- من وسام؟؟

- الشاب الذي التقينا به في حفلة البار، هل نسيته؟؟

- آه نعم، تذكّرته، من أين تعرفتِ عليه؟

- صادفته في المعهد منذ مدّة، هو ابن عم صديقة لي هناك، وأصبحنا صديقين.. بالمناسبة يسألني عنكِ باستمرار.

- اها، جيّد

تشعر وكأن شيئاً ما ينقصها، كالمدمن في في منتصف طريق إقلاعه عن المخدرات، يشعر باندفاع كبير للعودة إليها وقليل من الإقلاع عنها.

تفتقد عادات صباحيّة، وتفاصيل ترويها له.. تتمالك نفسها ثمّ تحاول الاتّصال به مجدّداً، رن هاتفه، ليس مقفلاً.

لا يردّ..

حسناً ربّما يكون مشغولاً، سيعاود الاتّصال حينما يرى مكالمتي.

هو كان يمسك بالهاتف وكالقابض على جمرة.. أراد أن

يسمع صوتها، لكّنه اتّخذ قراره..

المزيد منها، الكثير من المشاكل.

عليه إنهاء ما بدأ.. لكن في الوقت المناسب، انتظر أن تغادر أحلامها دون مظلّة تقيها الارتطام بالأرض، ليترك فيها ما رآه صعباً..

هاتفها بعد ثلاثة أسابيع، يحدّثها بنبرة تخلو من الأسف ويخبرها بانشغاله وبأنّه لم يكن يملك الوقت ليتّصل بها.

كان يظنّ أنّها ستنهمر في معاتبته وسؤاله عن موعد رجوعه.

اكتفت بكلمة حسناً، ولا مشكلة، حتّى استمرّ بالتبرير دون أن يشعر.. إلى أن أنهى حديثه.. وهي صامتة.

- ما بكِ؟

- لا شيء.. هل هناك شيء آخر؟؟!

أجابها بكلمات قاطعة وبنبرة حادّة:

- لا.. مع السلامة

حتّى آخر لحظة كانت تنتظر أن يمنعها من اقفال السماعة، سيقول شيئاً ما ويعتذر.. طالباً منها تحضير نفسها للسهرة..

كانت تنتظر كلمة لإنقاذ العلاقة.. لكنّ من قضى وقتاً يرسم

خريطة ليصل إلى قلبها، لم يعد يملك شيئاً يقوله، صمتها وعدم اكتراثها باتّصاله بعد كلّ هذا الوقت زاد من حقده تجاه كبريائها.

أنهت المكالمة ظنّاً منها أنّه سيتّصل في وقت آخر حين يكتشف مدى غلطه.. لكنّها لم تكن تعلم أنّ صمته سيدوم طويلاً.

ما كان يشعر أنّه أخطأ، ففي نبرة حديثها إهانة له.. كان يغفر لمن يخونه، لكنّه لا يمنّ بالغفران على من تباهى بالاستغناء عنه.

بدأت تشعر أنها ما أقامت معه يوماً، الرجل الذي أحبّته تركته في البندقيّة، كان محبّاً ومخلصاً حين كان يمشي معها.

قرّرت الاستقالة من العمل، وإرسال أوراقها وشهاداتها إلى معهد باريس الموسيقي، الذي سبق وأخبرها والدها عنه.. عندما ارتاده ابن صديق له.

اتّصل به مدير العلاقات العامّة وأخبره باستقالة سيلا.. رآها إهانة أخرى له، لكأنّ السماء أطبقت على الأرض، ألقى الهاتف من يده وراح يشعل سيجارة تلو الأخرى..

كيف تجرؤ على نسيان كلّ التواريخ الكبيرة التي رسمها معها، كان يعتقد أنّه عليها البقاء له حتّى وإن ابتعد عنها.

معها.. كان طفلاً ضعيفاً تائهاً ينظر بعينين ذابلتين الى أفق الرجولة. يريد أن يخطو خطوته الأولى والأخيرة. ماسكاً يدها هي. ماضيا معهاً إلى الأمام.

لكنّها الآن تراه لصاً وسيماً اختلس قلبها ومضى مسرعاً..

تتّصل بغريس وتطلب منها رقم وسام، لتعطي أخته دروساً في العزف، بدلاً من أن تكون عاطلة عن العمل.

تهاتف وسام:

- مرحبا

- أهلا، من معي؟

- أنا سيلا ، التقينا في..

يقاطعها مرحّباً:

- كيف حالكِ آنستي؟

- بخير، وأنت؟

- بخير أيضاً، لا بدّ وأن غريس أخبرتكِ عن طلبي حول إعطاء أختي دروساً في العزف.

- نعم، صحيح

- جيّد، هل يمكننا أن نلتقي لنتّفق على بعض الأمور؟

- طبعاً، غداً مساءً؟؟

- حسناً، سأتّصل بكِ

عرفت أن انشغالها بشيء، قد يكون المفتاح لنسيانه، تفاصيل صغيرة قد تمحو أسطولاً من التفاصيل المبهرجة التي عاشتها معه.

مرّت شهور انهمكت فيها بالتعليم والدراسة وانشغلت عن التفكير فيه،لا سيما في الصباح.. ففي الليل تتوسّد الذكريات وتعيشها مرّة أخرى لكن بنكهة وجع.. فالحزن كان يطرق أضلاعها كل ليلة..

كان شيئاً يشبه الجنّة، حضن ذلك الرجل، ليتها تستطيع أن تعيد الزمن لتحيا بداخله إلى الأبد.. رائحته تلك عند احتضانه كانت كفيلة بإعطائها جرعة مخدّرة ترسم ابتسامة لا تغيب عنها أبداً.. وانتهاء مفعول هذه الجرعة قد يكون قاتلاً.

****

راجعي حياتكِ.. ستجدين أنّ أجمل التفاصيل التي مررتِ بها.. كانت محض صدفة، وكلّ الخيبات التي عشتِها، كنتِ تستقبلينها ببهرجة وتفرشين لها الأرض وروداً..

****

كانت تهمّ بمغادرة المعهد يوم رأته ينتظرها خارجاً.. فاستغلّت كونه لم ينتبه لها، فدخلت إلى الحمّام وأصلحت زينتها كي لا ينتبه لشحوب الخيبة في وجهها.. خرجت تتظاهر بتصفّح بعض الأوراق وهي تمشي، فمرّت بجانبه لينادي اسمها، تنظر إليه وكأنّها نسيت للحظة من يكون ثمّ ترفع حاجبها قائلةً "أهلاً"

حتما فوجئ ببرودها.. قال وهو على مقربة منها:

- هل تسمحين لي بفنجان قهوة معكِ؟

ردّت:

- هل هناك شيء ضروريّ؟؟

- نعم

قبلت بعد رفض، أتبعه بإصرار شديد ورافقته إلى المكان الذي اجتمعت به أوّل مرّة على البحر..

ها هو ذا أمامها مجدّداً، لكنّها قمعت كلّ إحساس اشتياق باغتها، وقاومت رغبتها باحتضانه ومعاتبته.. واجهته بتعالٍ:

- ماذا هناك؟

- ليس جميلاً أن نبدأ قصّتنا بهذا المكان لننهيها هنا.

- أجابته:

- الجميل أنّي في بداية القصّة كنت ألعب دوراً.. أمّا الآن فأنا أنهي القصّة.

ضحك بصوتٍ عالٍ ومستفزّ.. وشرب قهوته

كان يعلم أنّها تخفي اشتياقاً ورغبةً كبيرة به، ويعلم أنّه سيهزمها يوماً لتعود مهرولةً إليه.

فالشيء الذي لا يغفر لها.. أنّها غادرته قويّة، دون أن تذرف دمعة له، ودون أن تعاتبه على الرحيل.

تباغته بالردّ على اتّصال من وسام، تقصّدت أن تشعره أن المتّصل رجل.. تخفض صوتها في أماكن وتبتسم، ثمّ ترفع صوتها قائلة.. حسناً لن أتأخّر، انتظرني هناك.

تظاهر بعدم الاكتراث وتفقّد هاتفه، لتقف وتودّعه معتذرةً لأنهّا اضطرت للرحيل. ثمّ تتركه جالساً وحده وتمضي.

منذ اللقاء الأوّل معه، إلى آخر لقاء.. ما انفكّ يفعل عكس كلّ توقعاتها.. أتراه جاء اليوم لينفخ على ما تبقى من رماد بعد احتراقها.. كيف يستطيع أن يكون ودوداً ومدمّراً في آنٍ واحد.

كلّ الذنب الذي ارتكبته هو تجاهله والتظاهر بنسيانه هو

والتفاصيل التي لحقت به.

هل يدمّرها ليحمي نفسه؟

عبرها مسرعاً.. وواصل طريقه

لم يكن يملك الوقت للاعتذار لها..

أو للاطمئنان عليها من بعد إعصاره.

عاشت أيّاماً من بعد هذا اللقاء، مستغربة كلّ شيء.

روحها تجثو على ركبتيها، وجسدها واقف يتظاهر بالقوّة.

يداهمها شعور بالافتقار إليه.. لقد غدَت غريبةً مرّتين، الأولى عند خروجها من دمشق، والثانية عند خروجها من حياته.

فالرجل كالوطن، حين تفقده الأنثى تدخل حالة من الذهول والضياع وحالة من الغربة الداخليّة.. لا يدرك عمقها أحد سواها.

هو واجه رحيلها بالتغاضي النرجسيّ الذي يليق برجل مثله

ظلّ يراقب أخبارها من بعيد.. دون جهد واضح.

فضَّلت أن تهديه نجاحاً، يشعره أنّها كانت فاشلة معه، لتبدع في العزف بأهمّ الحفلات الموسيقية لكبار الموسيقيّين في بيروت والتي تعلم جيّداً أنّه لا يفوّتها..

كانت مرارة قهوتها كلّ صباح لاذعة.. تحتسي منها جرعات خيبتها، وتتذوّق نكهة الخذلان.. فينعكس وجهه في الفنجان..

ليفقدها الرغبة في الاستمرار.

تمّ قبولها في المعهد الموسيقي في باريس.. وقرّرت التوجّه نحو مدينة تمنّى أن يقصدها معها.

أسبوع على السفر.. تجهّز نفسها لرحلة ستمتّع نفسها بها وتعيش أسطورة دون رجل.

حاولت إخفاء دمارها حتّى عن نفسها. واستيقظت من أحلامها وكأنّ شيئاً لم يكن.. وقرّرت أن تجري رياحها بما تهوى سفينتها.. بعدما كان منهمكاً في تمزيق الأشرعة.

لأشهر، انتابها حزن.. كسر فيها شيئاً لا يجبره إلّا الوقت.

لم تقتنع بعد كيف يستطيع الرجل أن يهدي أنثى لحظات سعادة شاهقة، ثمّ يعود ليبخل عليها ويتركها تسقط من هذا العلوّ ليتهشّم قلبها.

الأصعب.. هو ما لم يكن يوما ملكنا.. بل امتلكناه لوقت قصير وسنظلّ نفقده مجدّداً كلّما تذكّرناه.

الاشتياق لما مضى ولن يعود.. لحظات نتمنّى أنّنا لم نعشها حتّى لا نصاب بدوار الفقد كلّما ذكّرنا بها تفصيل بسيط.

تتذكّر عندما وصفها بالسيّاف وهما على الجسر في البندقيّة: أتراه كان يستهزئ بقدراتها؟

وهل كان عليها أن تستنتج أنّه أهداها لحظة قوّة قبل السقوط الأخير..!

كانت بالنسبة له تشبه الموسيقا كثيراً، هي مقام ذات طابع رقيق كالنهاوند.

رآها معزوفة الحياة، فكان عليه إتقان العزف..

فمن لايتقن العزف.. يبتعد لا شعوريّاً عن أوتارها

امتلكها ليرى فيها الفنّ الكامل..

لأنّه يعلم أنّ جميع الفنون ناقصة، إلاّ فنّ الأنوثة.

وليتأكّد الكلّ أنّه قليلٌ من الرجال من يعرف العزف على أوتار هذا الفنّ.

عندما علم بأنّها سافرت لباريس، لم يبخل على نفسه بعيش تجربة أخيرة معها في عاصمة العشّاق.. ركب أوّل طائرة توصله إليها ظنّاً منه أنّه فقدها الآن.. جاهلاً خسارته إيّاها من اللحظة

التي تركها تنتظره فيها دون ذنب.

في الحقيقة هو لم يمتلكها.. الكثير من التفاصيل سقطت سهواً من قبضته، ففضّل أن يُشعرها بأنّها من خسرته قبل أن تسبِقه بالتخلّي.

بما أنّه أيضاً خرّيج المعهد ذاته.. استطاع أن يشتري أحد المقيمين لأداء الطلاب الجدد بعلاقاته الواسعة هناك، ليوم واحد، ليثبت لها أنه الوحيد الذي يستطيع إنهاء كلّ شيء.. وفي حال لم يرغب بذلك، لن ينتهي شيء.

حين دخلت كانت منهمكةً في تحضير آلتها للعزف ولم تنتبه لوجوده فوراً.

ما إن رفعت رأسها حتى أصابها الذهول من هول ما رأت..

ألقت التحيّة وبدأت بالعزف وهي تحاول إخفاء ارتباكها وشوقها وكرهها معاً. كان مصدر قوّتها وضعفها..

كانت تعزف وتنزف.. ففي كلّ لحن كانت تفتح جرحاً.. أنهت بصعوبة ما أرادت تقديمه، ثمّ همّت بالمغادرة، وسرعان ما لحق بها ماسكاً ذراعها..

ألم أقل لكِ أن المصادفة سترتّب لنا موعداً آخر..

أجابته بمكر:

- لا اقتنع بالمصادفات المرتّبة.

ردّ ضاحكاً بسخرية:

- لا ترفضي هدايا القدر.

كان يحاول إخبارها أنّها حين خرجت من حياته،اختبأت بين طيات قلبه وزوايا ذاكرته.. لكنّها أفلتت يدها قائلة:

عندما تحضّر نفسك لمصادفة، ثق تماماً بأنّها ستكون لك خيبة كبيرة.

ثمّ مشَت وتركته يبحث بداخله عن سبب النهاية.

ما قالته كان أشبه بتلويحة أخيرة للغياب، في الجفاف والسكون والعبوس المدوّي..

ساعدها طول غيابه بجعله يشيخ في عينيها وأسقطه من دائرة اهتمامها.. ليجفّ العطر وتموت ملامحه بين أحداقها.

خلعت عنها كلّ شيء يذكّرها به، ومضت نحو قطع تذكرة ذهاب لمكان لا تستنشق فيه رائحة ذكرياته..

قطعت تذكرة نحو مدينة تقضي بها بعضاً من ليالي الأنس بعيداً عن صخب حضوره.

ابتسمت في طريقها للفندق، وصعدت مسرعة لغرفتها،

جلست تحتسي قهوتها أمام نافذة تطلّ على مدينة الحبّ التي ما زالت تشعر بحرارة أنفاسه موجودة فيها، دقّات قلبها كانت سريعة، هل لأنّها أسرعت في الصعود لغرفتها.. أم لأنّ حضوره كان أكبر من أن يستوعبه قلبها..

وباتت مقتنعة جدّاً بمقولة: قد يكون البعد أجمل.. وأنّ قلبها ليس مسماراً يعلّق عليه لوحات حبّه وينزعها متى يشاء.

وضّبت حقائبها واتّجهت إلى المطار مساءً، صعدت على متن طائرة شفائها من هوس رجل طاغية في الحبّ.

لأنّها ببساطة أغلقت عين قلبها وأبصرت من عين عقلها.

وصلت لمدينة لا تعرف أحداً فيها، ولم تخبر سوى غريس، اتّصلت بها من الفندق حين وصولها لتتفاجأ بها تبكي.. تسألها باستغراب:

- ما بكِ غريس؟، ماذا هناك؟؟

- لا شيء، كيف حالكِ أنتِ؟؟

- دعكِ منّي.. أخبريني ما الذي حصل؟

- لقد تركني هشام..

- ماذا؟ كيف؟ ولِمَ؟

- دون أيّ سبب يذكر، اتّصل بي وقال إنه مسافر إلى الأرجنتين ليعمل هناك ولا يريدني أن أنتظره طويلاً.. قال لي انتبهي على نفسكِ ومضى..

لم تعد تعلم ما الحلّ الآن.. أتواسي نفسها، أم تواسي صديقتها.

دوماً ما يكون وراء دموع الأنثى رجل.. ووراء كلّ خيبة أنثى رجل، وخلف كلّ رجل عظيم.. إمرأة

عبارة، كانت تواسي بها خيبتها بأنّها ليست الأنثى الوحيدة التي تقع بشباك رجل طاغٍ..

ثمّ تعود غريس لتسألها بعد أن تجفّف دموعها:

- حقّاً أين أنتِ؟ ماذا حصل معكِ؟.. وأين أنتِ الآن؟؟

- لا تقلقي. ولا تجهدي نفسكِ بإيجاد حلول لي.. اشتقت اليكِ فقط.

استمرّ حديثهما لساعة ونصف، أخبرتها ما حصل في باريس، وسبب مجيئها لفيينا.. ضحكتا على خيبتهما. لتنهي الحديث بمقولة لباميلا اندرسون، تقول فيها:

الرجال يحبّونك عندما تهينينهم، لا تسأليني لماذا.. هكذا هم.

تجاوبها سيلا ضاحكةً:

نعم.. أديري له ظهركِ، تجدينه ينتظرك في الجانب الآخر فاتحاً ذراعيه.

أغلقتا السمّاعة على وجعهما، بعد تذكّر بعض المواقف المضحكة وتبادل أحاديث طريفة، وقرّرت غريس أن تسافر لتزور سيلا، وتتعافى معها، فالصديق الحقيقيّ.. هو أفضل دواء للخروج من خيبات كبيرة.

صباحها الأوّل في فيينا كان ماطراً.. لا تدري ما تفعله فتاة مثلها في مدينة لا تعرف فيها أحداً، إلى أن وجدت على الانترنت أنّ حفلاً موسيقيّا يقام في دار الأوبرا مساءً، فجهّزت نفسها لتعيش سهرةً ممتعة تخلو من رجل يرسل لها سيّارته لتقلّها، وتذهب في سيّارة أجرة، لتصل وتجلس بجانب سيّدة خمسينية، لا بجانب مقعد فارغ يملأه الحبّ، عند بدء الحفل..

استمتعت بكلّ تفاصيل الرحلة، وعاشت المعزوفات بإصغاء، دون أن تنتظر انتهاءها حتّى يجمعها به حديث.

لتعود إلى الفندق، تعِدّ فنجان قهوة وتشربه مع كتاب.

ثمّ تقرّر أن تنام متوسّدة ذكريات عاشتها كحلم جميل، مبعدة كلّ التفاصيل السلبيّة التي مرّت بها.

قرّرت أن تنهض أقوى في اليوم الثاني، أن تباغت نفسها برحلة غداً للتعرف على هذه المدينة الجميلة.

تستيقظ.. وتتّصل بخدمة الزبائن لتطلب فطورها خالياً من رسائل مبهجة.

تتناوله وتذهب في رحلة لا يمسك أحدٌ يدها فيها، فكانت تمسك فيها كأس عصير، تراها أهمّ من يد رجل، كونها تفيد على عكس الرجال.

تذهب لسوق "غولدن يو" الذي يقع بالقرب من قصر هوفبرغ الشهير، لتبدأ السير في شارع "كولمارت" وتنتهي في شارع "كيرتن السياحي".

ثمّ تعود مساءً تحمل فساتين هي من اختارها، دون وضعها بعلب مزيّنة تحمل رسائل رجل ينتظر في الأسفل.

تتناول العشاء وتتحدّث مع غريس ثمّ تنام.

مضى أسبوع في فيينا، استطاعت التعرّف فيه على أحد الجيران، أخبرها أنّ المعهد الموسيقي في فيينا، يفتح أبوابه للمتدرّبين، والمتفوّقين ومنهم مَن يعزفون في حفل عالمي سيقام في دار الأوبرا.

أسعدها ما سمعته، وأسرعت لتقديم أدائها أمام لجنة هناك،

خلَت من سطو رجل بعثر مقاماتها، عزفت أمامهم بإبداع كبير.. وتمّ قبولها.

فقرّرت إخبار غريس كي ترسل أوراقها للمعهد. لتقيم معها في شقّة استأجرتها، بتكاليف أقلّ من أجرة الفندق.

فالنقود التي يرسلها والدها تكفي لأن تستأجر شقّةً صغيرة.

أمضت أشهراً تدرس في المعهد.. وكانت من المتدرّبين الموهوبين جدّاً.. حتّى أنها وجدت اسمها من بين العشرة الذين سيعزفون في الحفل العالميّ بدار الأوبرا.

لم تصدّق ما رأت، كانت سعادتها لا توصف، لأوّل مرّة ستعزف في دار الأوبرا في حفل ضخم هكذا.

أوّل ما تبادر لذهنها هو أنّه بالطبع سيحضر حفلاً كهذا، لكنّها لن تهرب إلى بلد آخر هذه المرّة.. ستواجه ماضيها بشجاعة وتمضي وكأنّه لم يكن.

استقبلت غريس بعد أسبوع.. شعرت بالقوّة حين رأتها، قضت معها وقتاً طويلاً.

ضحكت حين أخبرتها أنّ شابّاً أعجبها في المعهد منذ اليوم الأوّل لها فيه، قالت لها ممازحة:

- انتظري لتجفّ دموعك على من رحلوا..

ردّت:

- لا شكراً، تركت الدموع والذكريات والحنين لمن هم أقلّ قدرة منّي على النسيان، فأنا لا أقفل قلبي بالشمع الأحمر حداداً على رجل استوطنه ثمّ تبرّأ منه.

بقي يومان على الحفل، كانت تحضّر نفسها جيداً، وتبذل جهداً كبيراً في إظهار أفضل ما لديها..

فضَّلت الإصرار على النجاح حين أدركت أنّه لا شيء يستحق العناء سوى بناء المستقبل.

تقطع شرودها غريس لتسألها:

- هل ندمتِ؟

- على ماذا؟

- على أيّام جمعتك برجل أحرق بكِ اللهفة الأولى..

- بالطبع لا، ليس هناك ما يستحقّ الندم.. كلّنا معرّضون لتجارب قاسية.. والخسارة جزء من رحلة الحياة.

لا زلتُ أحلم.. وسأحلم دائماً

فليس لنا عكّاز يناسب الحياة إلّا الأماني.

أوصلها إصرارها لليوم، ستعزف مع أشهر فرقة موسيقيّة في

النمسا، كان للمكان رهبة كبيرة على المسرح.. تجربتها اليوم غنيّة جدّاً.

كان كلّ شيء له إيقاع.. وكلّ شيء بها يعزف.. بالرغم من أن الموسيقى هي الفن الأقرب على الإطلاق إلى الدموع والذكريات.

أصرّت على إعطاء أجمل ما لديها.. شاركت بإحساس كبير.

لمحها على التلفاز وهو يحضر الحفل، دُهش من قدرتها على الوصول لما أرادته بعيداً عنه، كيف استطاعت النجاح وهي مكسورة..

كان يعتقد أنّها عادت لبيروت لتمارس طقوس الحزن، ولتكون بجانب من يواسيها بمصابها وخسارتها الكبيرة.

كيف تسنّى لها أن تكمل طريقاً سيذكّرها دوماً به دون خوفها من هروب النسيان منها..

انهارت كرامته أمام نفسه، ففي استمرارها كانت تفتح ذراعيها لاحتضان النسيان منها.

فلم تعد بحاجته لتستمدّ وهج الحياة، ولن تصارع الأسى بعد اليوم ولن تتذكّره وتحزن..

أخطأ حين اعتقد أنّه قتلها، فعندما رآها اليوم أردتهُ قتيلاً..

****

ويظلّ السؤال الذي يدور بذهن كلّ من أنهكه الفراق..

- لماذا يُكمل الحبّ دائماً ما بدأه؟!

- ولماذا دوماً يستغلّ دهشتنا به ليرحل..!

****

يموت ببطء من لا يسافر

من لا يقرأ

من لا يسمع الموسيقى

من لا يجيد الاهتداء بعينيه

يموت ببطء..

من يتلف حبّه الخالص

من يحجم عن تقديم المساعدة

يموت ببطء من يصير عبداً للعادة

من يسلك كلّ يوم نفس الطريق

من لا يغيّر أبداً سمته

من لا يجازف بتغيير لون ملابسه

أو من لا يتحدّث إلى مجهول

يموت ببطء من يتجنّب الهوى

وزوبعة المشاعر.. تلك التي تعيد البريق للعيون

وترمّم الكسير من القلوب

يموت ببطء..

من لا يغيّر وجهته حين يحسّ التعاسة في العمل أو الحبّ

من لا يركب المخاطر ليحقّق الأحلام

من لم يحاول مرّة في حياته التمرّد على النصائح الرصينة

عِش حياتك الآن، تصرّف بسرعة

تفاد الموت البطيء.. لا تحرم نفسك من السعادة

بابلو نيرودا

****

كوني المرأة التي لَم ير قبلها امرأة

ولن يأتي بعدها امرأة... بل مجرّد إناث

لا تعجبي إن تمرّد عليكِ برغم هذا ولا تحزني

الحبّ الكبير يخيف رجلاً ماعرف قبلك امرأة. إنّه ينسحب ليحمي رجولته من إغداق أنوثتك، وليتداوى من تلاشيه فيك

لكنّني لا أعرف رجلاً شفي من مرض سرطان الروح بتناوله "أسبرين"

الكذب على الذات.

لا أحد تعافى من حبّ كبير، تقول التقارير العاطفيّة.

أحلام مستغانمي

****

أنت حرٌّ أمام شمس النهار..
وأنت حرٌّ أمام قمر الليل وكواكبه..
وأنت حرٌّ حيث لا شمس ولا قمر ولا كواكب
بل أنت حرٌّ عندما تغمض عينيك عن الكيان بكلّيته
ولكن أنت عبد لمن تحبّ لأنّك تحبّه..
وأنت عبد لمن يحبّك لأنّه يحبّك.

جبران خليل جبران